ممدوح حمادة

أم الطنافس

قصص قصيرة

أم الطنافس

(قصص قصيرة)

الكتاب: أم الطنافس - (قصص قصيرة)

الكاتب: ممدوح حمادة

جميع الحقوق محفوظة للكاتب

2014

الناشر: دار أبعاد

Website: www.abaadpress.com
Email: abaadpress@gmail.com
Telfax: 01 – 751541

لوحة الغلاف للفنان : هجار عيسى

الاخراج الغلاف: عائده سلامه
مكتب: 4426588 موبايل: 0933331402
Email: aydasalameh@yahoo.com

ممدوح حمادة

أم الطنافس

(قصص قصيرة)

إلى ذكرى الأصدقاء الذين رحلوا

❖ **نضال سيجري**

الذي جسد على الشاشة الكثير من شخصيات هذه القصص.

❖ **أديب خير**

الذي كان له الفضل الكبير في خروج الكثير من هذه القصص الى الشاشة.

❖ **محمد السعيد**

الذي نالت منه اليد الآثمة ولازال صوته يصدح بأن ام الطنافس هي «الناج الوحيد».

ممدوح حمادة

الأمانة

كما تتحول المستحيلات إلى أحلام، هكذا تحول التفاح في حياة أسعد، فقد أصبح لديه شك بأنه سيتمكن، بل يقين بأنه لن يتمكن، من إيصال غراس التفاح التي يشتريها كل عام إلى أرضه في ظهر الجبل، حيث تتمكن من ضرب جذورها في التراب لكي تثمر له تلك الفاكهة الشهية، التي يبيع منها و يأكل ويصنع المعقود ويقدمها هدايا وبراطيل في السحاحير، لكي ينفي عن نفسه صفة البخل التي ألصقها به مغرضون، لا يفرقون بين البخل والحرص.

اشترى أسعد قطعة الأرض التي كان يحب هو وزوجته أن يطلقا عليها صفة «الكرم»، من جاره جودي، الذي باعه إياها بثمن باهظ مقارنة مع أسعار الأرض البور التي كانت تحيط بها، وعندما وبخته زوجته على فعلته هذه لوح بيديه قائلا:

- استحينا نقول لا.

أما جودي فيمكن القول إنه باعه إياها بسبب قناعته الراسخة بأنها أرض صخرية غير قابلة للاستصلاح، بعد أن حاول ذلك أكثر من مئة مرة، ويمكن هنا أن نضع كلمة «حاول» بين قوسين، حيث أن كل ما كان يفعله جودي هو أنه يحمل معوله ويتوجه إلى الكرم،

يجمع بعض الحطب ويصنع لنفسه الشاي ويجلس على حجر ما يشرب الشاي ويراقب الحجر الذي عليه اقتلاعه لساعتين أو ثلاث ساعات، وأحيانا أكثر، ثم يتوصل إلى قناعة راسخة بأن اقتلاع الحجر أمر غير ممكن، فيحمل معوله ويغادر دون أن يزعج الحجر حتى ولو بضربة واحدة من معوله، وهذا ما كان يعتبره جودي محاولة، أما أسعد فقد كانت محاولاته مقرونة بالعرق وبألم الظهر وتشنج العضلات وبالدم وتكسر العظام أحيانا، لأنه إن نظر إلى حجر أعمل به معوله، وإن نظر إلى صخرة أعمل بها مخله، وإن بدأ بالعمل لا يتوقف قبل أن ينتهي منه، ولذلك فإن جودي عندما شاهد مساحات التراب تتسع على حساب المساحات المغطاة بالحجارة في القطعة التي أصبحت لأسعد، أدرك أن الأمر ممكن، ولكن ليس بمعزل عن مساعدة الآخرين، ولهذا قام جودي دون أن يُطلبَ منه ذلك، بمساعدة جاره أسعد باقتلاع حجرين صغيرين ونقلهما إلى الكومة التي كان أسعد يجمع بها الأحجار، ولم ينس أن يقول له :

- الجار للجار يا اسعد.

الأمر الذي جعل اسعد مدينا له بالمساعدة عندما قرر جودي استصلاح أرضه، وبطبيعة الحال فإن مساهمة جودي في استصلاح أرضه لم تتعد تلك المساهمة التي تبرع بها لأسعد، خلاصة القول إن الأرض قد تم استصلاحها، ووجب غرسها بالتفاح، وهذا ما يبذل أسعد المحاولات لفعله منذ عدة سنوات.

في المرة الأولى اشترى أسعد مئة من الغراس، وضعها في باحة منزله لكي ينقلها في الصباح إلى الكرم ويقوم بغرسها، ونام تراوده أحلام سعيدة يتدحرج حوله التفاح فيها من كل الجهات، تفاح أصفر وأحمر وأخضر، وأفرط في الحلم لدرجة أنه شاهد تفاحا أزرق وبنفسجي وحتى أسود، ولولا إلحاح الحاجة لما استيقظ أسعد من حلمه ذلك حتى الصباح، حاول الاحتيال على حاجته ومتابعة النوم لاسترجاع الحلم، ولكنها كانت قوية لدرجة جعلته ينهض ليفعلها في اليقظة في المكان المخصص لها بدلا من فعلها في الحلم في مكان غير محبذ، خاصة أنه ليس بحاجة لصفة جديدة تلصق به في بلدة يحب أهلها إلصاق الصفات التي يتحلون بها بغيرهم من الأشخاص، ترك أسعد أطنان التفاح تتدحرج في حلمه وخرج إلى باحة المنزل التي تقع في ركنها حجرة قضاء الحاجات، ولكنه سرعان ما نسي حاجته، فقد كان ما رآه كفيلا بأن يدفع كل الحاجات مهما بلغت ذروتها، إلى المرتبة الثانية.

هول الصدمة عندما رأى أسعد باحة منزله فارغة، لم يكن أقل من الفرح الذي غمر نفسه في الحلم المترع بالتفاح، فمن بين المئة غرسة التي كانت تملأ باحة منزله، لم يتبق إلا غرسة واحدة يبدو أن اللصوص تركوها بعد أن تعرضت للكسر، إضافة إلى بعض كتل التراب التي سقطت من حول جذور الغراس المسروقة، وبعض الأكياس السوداء التي كانت تلف تلك الجذور.

أول من خطر في بال أسعد لكي يشكي له همه كان جاره جودي، فناداه بصوته المبحوح وبنبرة المكلوم، أو فلنقل بنبرة من ثكلت وحيدا، فالمكلوم لا تعبر بدقة عن حالة اسعد في تلك اللحظة، ولكن نداءه لم لم يلق ردا من جودي، لأن جودي لم يكن موجودا فقد فتحت زوجته النافذة المطلة على دار اسعد وسألته:

- خير يا جار؟
- أين جودي؟
- جودي طلع إلى الكرم لكي ينصب التفاح.

جلس أسعد على حجر في باحة البيت ودفن وجهه براحتيه ولم يسمح له الوضع الذي آل إليه بسماع بقية الأسئلة التي طرحتها عليه زوجة جودي.

لم يخامر أسعدا شك بأن جودي هو من فعل ذلك، ولكن ضميره لم يكن يسمح له أن يلصق التهمة بأحد دون دليل قاطع، ولذلك فقد اكتفى بآلام الصدمة وفقدان الشهية وفقدان الرغبة بالكلام، اللذين لازماه أياما بعد فقدان الغراس، وعندما أخبره جودي لاحقا بأن الغراس التي غرسها في الكرم أرسلها له شقيقه من الشام، لم يتوان أسعد عن تصديقه والدعاء له بالتوفيق، حتى أنه أعطاه بعض النصائح القيمة وساعده في غرس بعض الغراس التي لم يسعف الوقت جودي في غرسها.

بعد أسبوعين، أو ربما ثلاثة نسي أسعد الآلام التي سببتها له سرقة الغراس، لا بل أخذ يتذكرها بنوع من الدعابة، عندما يروي كيف حدثت القصة لزواره أو من يلتقيهم، والذين بدورهم لم يقصروا في إطلاق الضحكات بسبب روح الدعابة التي كان يضفيها أسعد على طريقة سرده للأحداث.

وحتى حلول الموسم التالي تمكن أسعد من جمع المبلغ الكافي واشترى دفعة جديدة من الغراس وضعها في أرض المنزل ونام لكي يستيقظ باكرا وينقلها إلى ظهر الجبل لكي يغرسها هناك.

وكما في المرة الماضية، راودت أحلام التفاح أسعد في هذه المرة، وإن كان بكميات أقل وألوان أكثر واقعية، الفرق الوحيد هو أن الذي جعل أسعد يستفيق من منامه لم تكن الحاجة الملحة كما في المرة الماضية، ولكن تلك الشاحنات التي كانت تهرس تفاحه على الإسفلت دون رحمة، فقد تراءى له أنه ينقل محصوله من التفاح في عربات كبيرة لعشرة جرارت زراعية متوجها بها إلى سوق الهال، ولكنها في الطريق وبشكل لا يحدث إلا في الحلم انقلبت جميعها وأخذ التفاح يتدحرج منها على أسفلت الطريق، وصادف في الوقت نفسه مرور قافلة من القاطرات المحملة بدبابات وجرافات وأشياء أخرى لا نراها أيضا إلا في الحلم، فإحدى القاطرات كانت تقل فيلا ضخما أكبر من تلك الفيلة الموجودة في الطبيعة بمرتين أو ثلاث، وربما بعشر مرات، وقف هو في منتصف الطريق وأخذ يشير بيديه ويصرخ لكي تتوقف القاطرات فيتمكن من إنقاذ محصوله، ولكن

القاطرات كانت تمر كما لو أنه غير موجود أبدا، وكانت عجلاتها تسحق تفاحة دون رحمة، محولة إياها إلى عصير ضمخ الإسفلت وروى جانبي الطريق، ولكن هذا المنظر بالتحديد وإن سبب له ألما كاد يجعل قلبه يتوقف عن الخفقان، إلا أنه لم يكن السبب الذي جعله يستيقظ من كابوسه بالكاد يلتقط أنفاسه، فالذي بعث في قلبه الرعب ووضع النقطة في آخر سطر الكابوس البشع ذاك، هو ذلك الفيل الذي كانت تقله إحدى القاطرات، فقد رفع خرطومه وكشف عن فمه وصاح به:

- ابتعد عن الطريق يا حيوان.

بسمل أسعد بعد أن نهض من الكابوس، ثم تناول كأس ماء وشرب لكي يتخلص من الجفاف الذي أصاب حلقه بسبب رعبة الكابوس، ثم نهض وخرج لكي يتنفس هواء نقيا باردا يجلعه يسترد بعض رباطة جأشه.

ويبدو أنه بموازاة الكابوس الذي كان يجري في منام اسعد، كان هناك كابوس آخر أكثر واقعية يجري في باحة منزله، فقد أصيب أسعد بالإحباط عندما خرج ولم يجد غرسة واحدة في باحة المنزل، وقد تمت السرقة في هذه المرة بهدوء أعصاب أكثر من ذي قبل، حيث لم يشاهد أسعد الكثير من البقايا التي شاهدها في المرة الماضية، ولم يراود أسعد الشك هذه المرة بأنه عندما ينادي جاره جودي ستطل زوجة الأخير من النافذة المطلة على داره وتقول له:

- جودي ذهب إلى الكرم لكي يغرس الشتلات التي أرسلها له شقيقه من الشام.

ومع ذلك فقد قام اسعد بمناداة جاره جودي، ولكن ليس ليبث له همه، وإنما دفعه الفضول لكي يتأكد مما فكر به، وبالفعل أطلت زوجة جودي وقالت تلك الجملة التي تخيلها اسعد، وبرغم مصيبته فقد بعث ذلك في نفسه بعض الارتياح، فقد شعر أنه قادر على توقع الأمور قبل حدوثها، وهذا من وجهة نظره دليل على أنه ذكي ودماغه يعمل.

في هذه المرة لم يصب اسعد بأعراض المرة السابقة، فقد تقبل الصدمة بصبر وبجلد وإن كان شعوره بالمرارة قد فاق شعوره في المرة الماضية بنفس تلك المرارة، وفي هذه المرة أيضا، بعد انصرام بعض الوقت كان أسعد يتذكر الموضوع بروح الدعابة ويحب ان يختم روايته للقصة قائلا وهو يضحك :

- الحمار ما بيوقع بالجورة مرتين.. انا وقعت.

جمع أسعد المال، بل قل وفره ليشتري الغراس في الموسم اللاحق، وفي هذه المرة لم يكتف بشراء الغراس، فقد اشترى بارودة دك، وحشا سبطانتها حتى الفوهة بالخردق والبارود، ووضح لزوجته:

- لكي لا يتمكن ذلك الكلب من إطلاق عطسته الأخيرة قبل أن يفطس.

وكاد يقول: «جودي» بعد أن نطق كلمة «الكلب» ولكن ضميره لم يطاوعه، فما أدراك، ربما يكون بريئا ونحن نظن به الظنون، ولكي لا تغيب الغراس عن عينه قرر اسعد في هذا العام التضحية بحلم التفاح فطلب من زوجته أن تضع له كرسيا أمام الباب لكي يسهر حتى الصباح، ثم جلس على الكرسي ووضع البارودة المحشوة في حضنه، وبقي لساعة أو ساعتين يتفادى حتى أن ترمش له عين، لكي لا تغيب الغراس ولو للحظة واحدة عنه، وعندما كان يتعب كان يغمض عينا يجعلها ترتاح قليلا، ويترك الأخرى مفتوحة، وكانت الأمور كلها تسير على ما يرام، إلى أن أخذ البرد يقض مضجعه، فأخذ يرتجف رجفات طويلة بين الحين والآخر كأنه يطرد البرد من كتفيه، ولكنه في نهاية المطاف لم يجد بدا من إيقاظ زوجته لكي تجلب له غطاء يساعده في اتقاء البرد، وبعد قليل كانت زوجته قد لفته لفا محكما بحرام صوفي كبير ودافئ، ولشدة ما شعر بالسعادة بسبب الدفئ الذي انبعث في أوصاله، كاد ينهض ويقبل زوجته شكرا لها، بل هو بالفعل رفع نفسه قليلا وكان يزمع أن يفعل ذلك وقد ناداها مستوقفا لهذا الغرض، ولكنه عاد وجلس، وقد تخيل أن جودي ربما يكون مرابطا في الظلام خلف نافذته، مراقبا ما يجري، وهذا أمر غير لائق في القرية أن يقبل الرجل زوجته على الملأ، لذلك وعندما سألته زوجته عن سبب مناداته لها قال:

- بعدين.. بعدين.. جوا

بعد أن شعر أسعد بالدفء، شعر بالنعاس، ولم تجدِ سياسته بجعل عين تنام وعين تسهر، فبعد أن أغلق عينه التي أمرها أن تنام غافلته الأخرى ونامت قرب شقيقتها، أما هو فلم ينتبه لذلك بسبب مغادرته المكان إلى حلم التفاح.

لم يكن في الحلم تفاح هذه المرة، كانت فقط رائحة التفاح، وأجمل صبية في الأرض وكان اسمها تفاحة، قادت اسعد من يده إلى مكان لم يستطع تحديد هويته، ولكن ما لاحظه أن جميع الرغبات فيه قد استيقظت، وكانت تفاحة التي تتقن الأشياء وراء ذلك، فسرعان ما وجد نفسه بين أحضان تفاحة، ورغم شدة الجاذبية التي كانت تشده للالتصاق بجسد تفاحة، ورغم رغبته الشديدة التي كانت تسيطر عليه في امتلاك تفاحة، إلا أن إخلاصه لزوجته جعله يدفع تفاحة بعيدا عنه ويجد نفسه في باحة المنزل يتنفس بصعوبة ويبسمل ويتعوذ، وقد تكون لديه انطباع بأن تفاحة تلك لم تكن سوى جنية خبيثة أرادت أن تدفعه لخيانة زوجته، والذي أكد له ذلك هو وجود الطاقة الكبيرة في جسده والرغبة الشبقة في نفسه حتى بعد استيقاظه وبنفس القوة التي كانت موجودة فيها في المنام، و للحظة ندم على مغادرة عالم تفاحة، وتمنى لو أنه أكمل المنام بين أحضانها إلى خواتيمه، الأمر الآخر الذي اكتشفه هو أن جنيا كان يعبث في باحة المنزل في ذلك الوقت الذي قضاه مع تفاحة، والذي أكد له ذلك هو عدم وجود الغراس في باحة المنزل، والأنكى من ذلك عدم وجود البارودة التي كانت في حضنه.

تحول الشعور بالصدمة إلى شعور باليأس، وكاد يقتلع فكرة التفاح من رأسه نهائيا، لكن زوجته التي أصرت على ذلك جعله يكرر العملية في الموسم اللاحق، ورغم كافة الإجراءات والتدابير التي اتخذها فقد سرقت الغراس في الموسم اللاحق وفي الموسم الذي تلاه، مما جعله يتخذ قراره النهائي بعدم غرس التفاح، ولكن جملة قالها جودي ذات مرة بعثت الأمل في نفسه، ففي سهرة من السهرات المشتركة وفي حديث له صلة بسرقة الغراس، لوح جودي طاردا الهواء بقفا يده متذمرا وقال:

- يا أخي أنت علقت على التفاح، يوجد فاكهة أخرى غير التفاح.

لم يلق أسعد بالا على تلك العبارة في السهرة، ولكنه بعد أن ألقى رأسه على الوسادة، استرجع عبارة جودي، وتكررت تلك العبارة في رأسه عدة مرات بصوت جودي، وكان يرافقها صدى كما لو أنه صادر من جوف معدني، ما أوحى لأسعد بأن النحس ربما يكون من التفاح نفسه، فأيقظ زوجته وأبلغها بالقرار الجديد الذي اتخذه، سيزرع الكرز بدلا من التفاح، لم تعترض زوجته على القرار فالمهم بالنسبة لها أن يزرع شيئا ما، يتركه للولد الذي ارتسم في رحمها بحيث يجد شيئا يقطفه ويبيعه عندما يكبر، بدلا من تلك الأرض الخالية، وإمعانا في المشاركة وجدت نفسها بعد أيام وقد راودها الوحام على الكرز، ما زاد إصرارها على فكرته.

واشترى أسعد غراس الكرز، وراودته أحلام الكرز بدلا من أحلام التفاح، ولكن المصيبة التي حدثت مع التفاح تكررت مع

الكرز، فقد استيقظ باكرا لسبب ما و وجد باحة منزله خالية من غراس الكرز.

ومن جديد أطلت زوجة جودي من النافذة عندما ناداه أسعد، وقالت جملتها المعهودة:

- جودي ذهب إلى ظهر الجبل لغرس الكرز الذي ارسله له شقيقه من الشام.

هنا لم يتمكن ضمير أسعد من كبح جماح غضبه، ولكن ولكي لا يرتكب جريمة بحق جاره، يندم عليها فيما بعد فقد قرر اللجوء إلى القانون، وتوجه إلى مخفر الشرطة.

في المخفر تثاءب المساعد الذي استيقظ للتو وسأله:

- هل لديك دليل على ذلك؟

فنفى اسعد أن يكون لديه دليل، أما الشرطي فقد تثاءب مرة أخرى وقال:

- وما الذي سأفعله لك بدون دليل.. كل الغراس تشبه بعضها، هل أذهب إلى الغراس وأسألهن.. يا حبيباتي أأنتن غراس اسعد أم غراس جودي؟.. ما رأيك؟

هز أسعد رأسه في علامة لا يفهم منها شيئا، ووافق المساعد على كلامه، عندها أشار له المساعد إلى جهة ما وطلب منه أن يضع إبريق الشاي على النار ويغسل الكاسات، ثم أن يوقظه بعد أن يصبح الشاي جاهزا.

اقتنع أسعد بأن كل شيء يقف ضده، أو في أحسن الأحوال، لا يقف معه، حتى القانون، ولذلك قرر التخلي عن الفكرة نهائيا، لا تفاح ولا كرز ولا إجاص ولا دراق، ولا بطيخ مبسمر، كما أنهى عبارته التي صاغ فيها قراره، ولكن زوجته أسرت له بفكرة جهنمية لم تقنعه، ولم تبعث في نفسه الأمل على تحقيق الحلم، ولم يكن لديه الحماس لتنفيذها لو لم تقل له زوجته:

- ما الذي تخسره إذا جربت، سرقت غراسنا كل هذه السنين فلتسرق مرة أخرى.

وافق أسعد على تنفيذ الفكرة إرضاء لزوجته وقال مؤيدا:

- ماشي.. وكما يقول المثل.. يا مصفاية لا يعيبك ثقب.

وفي المساء كان أسعد يقف أمام باب جودي ويعلن له:

- يا جار حماتي مريضة ونحن مضطرون لكي نبيت عندها الليلة.

أثنى جودي على شهامته وقال:

- طبعا.. واجب.. الإنسان حماته كأمه.

ولكن اسعد الذي لم يكن يهمه كل هذا الهراء الآن، تابع قائلا:

- وأنت كما تعرف، الغراس تسرق كل عام ولذلك أريد أن أتركها أمانة في عنقك أثناء غيابي.

وعده جودي خيرا وطمأنه إلى أن الغراس» بإذن اللّه» لن يصيبها مكروه، ثم غادر أسعد وزوجته إلى منزل حماته ونام ملء جفنيه ولم يحلم بشيء.

أما جودي فقد وضع كافة لوازم السهر في الخارج ولم يدع زوجته تذوق طعم النوم، فمرة يطلب شايا ومرة قهوة ومرة طعاما وهكذا دواليك، حتى أنه لم يتوانَ عن إخراج البارودة التي سرقها من اسعد بعد أن اطمأن لعدم وجوده، لكي يستخدمها إذا استدعت الضرورة ذلك أثناء نوبة الحراسة الطويلة هذه، ويمكن القول إنه صان الأمانة بكل إخلاص ولم يغمض له جفن طوال الليل ولم يشعر بالنعاس ولو للحظة واحدة بسبب القلق الذي كان يراوده عندما يتخيل أن اسعد سيعود ولن يجد الغراس.

استفاق اسعد في بيت حماته، وتناول الفطور معها ومع زوجته، ثم توجه إلى بيته ليجد جودي ينتظره على أحر من الجمر قائلا:

- كل شيء كما تركته.

شكره أسعد على صونه للأمانة، فاستأذن منه جودي لكي يذهب فينام بعد أن سهر الليل كله، فأذن له اسعد.

غفا جودي حتى قبل أن يصل رأسه إلى الوسادة، أما اسعد فحمل الغراس في جرار استأجره لهذا الغرض، ثم غرسها في الكرم والفرح يغمر قلبه، وبعد عدة أعوام أطلقت أشجار الكرز براعمها الأولى وبشرت بالمواسم القادمة.

ولكن ومع الأسف، فإن اسعد لم يستفد من أي موسم من تلك المواسم، فمن يسرق الغراس، لا يعجز عن سرقة الثمر.

البقرة

من عادة أسعد أنه كلما أضاف ربع ليرة أو أكثر أو أقل الى مدخراته التي يحتفظ بها في علبة سمنة معدنية فارغة، يقوم بعد المبلغ كاملا، وقد كان يفعل ذلك كل يوم مرتين أو أكثر، ذلك أن القرش الداخل الى جيب اسعد مفقود والخارج منه مولود كما كان الجيران يشيعون، ذلك أن دورة رأس المال بالنسبة لأي قطعة نقدية كانت تنتهي عند وصولها الى جيب اسعد، وقد كان أسعد يشعر بلذة بالغة عندما يعد النقود، فكان عندما يعد القطع المعدنية يرمي بها خصيصيا في علبة السمنة لكي يصدر ارتطامها بمعدن العلبة ذلك الرنين الذي يبعث في نفس اسعد لذة لا توازيها حتى تلك التي يحصل عليها الرجل عند حدوث ما يسمونها بالرعشة الكبرى، وعندما يعد القطع الورقية كان يحصل على تلك اللذة عندما يلحس ابهامه الذي لم يكن يبخل عليه باللعاب.

أما زوجته فكانت بكل حيادية وكأن الموضوع لم يكن يخصها، تعلق بجملة واحدة اعتادت على قولها كل يوم عدة مرات منذ ان تزوجت اسعد:

- الله يكثرهم بين يديك.

ولكنها اليوم، وقد لفت نظرها حجم المبلغ الذي ملأت قطعه النقدية أكثر من نصف العلبة المعدنية وبلغت سماكة رزمته الورقية مقدارا جعل الشقوق تحدث في زوايا المظروف الورقي الذي أخذ يضيق عليها، خطرت لها فكرة، فهذا المبلغ لو تم تشغيله كما تفكر لأنتج كل شهر ضعف ما هو موجود في العلبة، ولكن الصعوبة تكمن في إقناع أسعد بدفع تكلفة رأس المال، ولذلك فقد قررت ان تبدأ حديثها بالإغراء:

- في شهر واحد سيصبح لديك ضعف هذا المبلغ اذا قمت بتشغيله.

أما اسعد الذي كان يفهم كلمة تشغيل بشكل واحد فقط هو الاقراض بفائدة رد على الفور:

- اولا الفائض حرام، ثانيا ثلاثة ارباع الذين يتدينون يعجزون عن السداد، لست احمقا لكي اضيع مالي بهذه الطريقة، فأنا لم اجده على قارعة الطريق، لقد دفعت لقاء كل قرش عرقا ودما.

- ومن تكلم عن الفائض؟ أصلا انا لا افهم في هذا الموضوع من اساسه.

- وكيف اشغل نقودي اذا؟ اوظفها عند الحكومة على اساس بكالوريا

سأل اسعد وقهقه مداعبا في نهاية جملته، ولكن زوجته لم تلق بالا الى دعابته وردت:

- بقرة، اذا اشترينا بقرة من حليبها يمكن أن ننتج ضعف هذا المبلغ كل شهر.

ضحك اسعد، متقصدا اظهار سذاجة زوجته، وكان يريد ان يجعل من سذاجتها مبررا لعدم انفاق نقوده لا على البقرة ولا على اشياء اخرى وسألها:

- يا امرأة، في الرأس يوجد شيء اسمه المخ، هل سمعت بذلك؟

- طبعا.

اجابت الزوجة مستغربة فأردف اسعد وقد شعر بالتفوق:

- وهذا المخ ما هي مهمته، هل تعرفين؟

- طبعا، التفكير.

اجابت الزوجة، فقهقه اسعد ونقر على رأسها قائلا:

- وهل يوجد عندك من هذه البضاعة هنا؟ المبلغ الذي معنا لا يشتري بقرة.

- يشتري .

اجابت الزوجة وتابعت:

- عبود مهنا سلطان يبيع بقراته بنصف السعر لأنه ينوي السفر.

صمت اسعد قليلا وقلب اشياء في راسه ثم تساءل:

- لأنه ينوي السفر، أم لأن البقر عنده مريض ؟

- لأنه ينوي السفر وقد باع معظم بقراته و لم يبق سوى اثنتين او ثلاثة.

صمت اسعد مرة اخرى مقلبا بعض الأمور في رأسه، ثم تساءل:

- وهل انت واثقة ان البقرة ستدر علينا المبالغ التي تتحدثين عنها؟

- احسب لتتأكد بنفسك.

تناول اسعد ورقة وقلما بينما اخذت زوجته تملي عليه اثمان الحليب واللبن الرائب والجبن وغير ذلك من مشتقات الحليب فنتج لديه مبالغ طائلة جعلته لا يكمل الحساب، فقد رمى بالورقة جانبا وتناول علبة السمن وطلب من زوجته:

- اعطني كيسا أو قطعة قماش اصر بها النقود، من غير اللائق أخذها لعبود مهنا سلطان بعلبة السمنة.

ناولته زوجته كيسا قماشيا أفرغ فيه نقوده المعدنية ووضع المظروف الذي فيه النقود الورقية في جيبه ونهض، ثم خرج من المنزل تشيعه دعوات زوجته بالتوفيق وكان مقصده منزل عبود مهنا سلطان.

ولكنه عندما شاهد جاره جودي في باحة منزله يكسر الجوز ويرمي اللب في فمه توقف للحظة وقلب الكثير من الأفكار السوداء، وقال مخاطبا زوجته غيابيا:

- ومن قال لك يا غبية ان جودي سيسمح لنا بحلب البقرة، إنه سيقوم بحلبها ليلا وسنتسيقظ في الصباح على ضرع جاف، ومن غير المستبعد ان توقظنا رائحة الشواء.

ثم انصرف بعد ان تناول لب الجوز من يد جودي الذي نوه له ان الجوز له فوائد كثيرة في مجال النسوان.

زوجة أسعد تفهمت مخاوفه وشاركته اياها ولكنها لم تستسلم لهذه المخاوف مثله:

- لنبن جدارا بين منزلنا ومنزله، في كافة الأحوال يجب ان نسور منزلنا.

وافقها أسعد ولم تمض ساعات حتى كان المعمرجي اسماعيل يشيد جدارا من الخفان يرتفع بين منزلي أسعد وجودي.

جودي الذي احدث له ذلك نوعا من المفاجأة التفت الى زوجته وقال:

- اسعد ينوي على شيء.

- شيء مثل ماذا؟

- لا أدري، ولكن أسعد ليس لديه الشجاعة لكي ينفق ثمن الاسمنت والخفان وايجار المعمرجي أذا لم يكن قد حسب اموره وايقن ان ذلك سيدر عليه اكثر مما انفق.

- ولماذا يضيرك هذا؟ فليفعل ما يشاء، منزله وهو حر فيه.

- لا يضيرني أبدا، ولماذا يضيرني، هل يبني سور الصين العظيم لكي يضيرني؟

ثم نهض جودي وبدأ يجمع الأخشاب لكي يرمم سلمه القديم.

عند اكتمال بناء الجدار حمل اسعد ما تبقى من نقوده وخرج

من المنزل مشيعا مرة أخرى بدعوات زوجته بالتوفيق وكان مقصده منزل عبود مهنا سلطان، صاحب البقرة، وعندما خرج الى الشارع كان جودي وهو يدق المسامير مثبتا درجات السلم هو اول شيء وقعت عليه عينا اسعد.

لم يراود اسعدا أي شك بأن هذا السلم مخصص للجدار الذي انتهى من بناءه قبل قليل:

- هه وهل تقف جدران في وجه جودي؟

قال أسعد في داخله وهو يعود ادراجه الى منزله، ومرة أخرى اتفقت معه زوجته فيما يخص نوايا جودي القذرة ولكنها لم تتفق معه في الاستسلام:

- حتى لو صنع سلما فسوف نتصدى له، فلنركب الأسلاك الشائكة فوق الجدار.

وهكذا كان اسماعيل المعمرجي يقوم بتركيب الأسلاك الشائكة فوق الجدار الذي بناه امس بين منزلي اسعد وجودي، وهذا ما جعل شكوك جودي بأن اسعد يخطط لأمر ما، تتأكد، فطلب من زوجته ان تحضر له الصرة التي فيها النقود من الطاقة التي في الغرفة الغربية.

ومرة ثالثة يخرج أسعد مشيعا بدعوات زوجته بالتوفيق، قاصدا منزل عبود مهنا سلطان، وشعر بشيء من السرور عندما تجاوز منزل جودي دون ان يراه ولكن سروره لم يستمر كثيرا، حيث شاهد

جودي قادما وفي يده مقص مخصص للمعادن اشتراه جودي من محل الأدوات الزراعية.

- اشتر له كلبا يمزقه اربا.

قالت زوجة أسعد وقد اغرورقت عيناها بالدموع نتيجة اليأس الذي حل بها، وهكذا فقد كان كلب الحراسة الذي اشتراه أسعد يقعي اسفل الجدار في صباح اليوم التالي وقد شد بزرد إلى وتد دقه اسعد في زاوية باحة المنزل، وبعد أن تأمله قليلا شعر بالراحة في داخله ثم فكه من الزرد محررا إياه وعندما سألته زوجته لما فعل ذلك، قال وابتسامة على وجهه تدل على مدى ارتياحه :

- لكي لا يكتفي بالنباح إذا جاء جودي، لكي يلحق به ويمزقه إربا،

ثم قهقه وخرج مشيعا بدعوات زوجته له بالتوفيق قاصدا منزل عبود مهنا سلطان، وكما في المرات السابقة لم يدم ارتياحه طويلا، ففي طريقه شاهد جودي يحمل في يده كيسا من العظام، لم يجد اسعد صعوبة كبيرة لكي يدرك أنها مخصصة لكلب الحراسة.

هذه المرة انهمرت دموع زوجته بغزارة، وشعر هو بحقد شديد على جودي ثم خرج من المنزل غاضبا دون، ان يجيب على سؤال زوجته التي استفسرت عن وجهته، وبعد ساعة عاد إلى المنزل وأخرج من تحت ثيابه مسدسا عرضه على زوجته:

- من البداية كان يجب ان نشتري هذا، لم يكن هناك داع لا للجدار ولا للكلب ولا للأسلاك الشائكة.

شعرت زوجته بالقلق بينما كان هو يفرغ الطلقات فوق الفراش من علبة كرتونية:

- هل جننت؟

- لم اجن.

قال أسعد وهو يحشو الطلقات في مخزن مسدسه وتابع:

- إذا تجرأ ودخل إلى بقرتنا سأفرغ هذه الطلقات كلها في رأسه، من هو مثل جودي لا تنفع معه إلا هذه السياسة.

ارتسمت معالم الخوف على وجهها بينما وجه لها اسعد بنبرة لا تخلو من الفحولة بعد ان اصبح في يده مسدس، أمرا بإحضار كيس النقود والمظروف لكي يتوجه إلى منزل عبود مهنا سلطان لشراء البقرة.

- وماذا ستعطي لعبود مهنا سلطان مقابل البقرة.. الكيس الفارغ أم المظروف الفارغ هو الآخر؟

اكتشف اسعد انه انفق كل مدخراته لقاء كل ما شيده من تحصينات وما قام به من اجراءات لحماية البقرة، فنظر الى زوجته وقال لها:

- كل عمري سياستي تعتمد على شعار عصفور باليد خير من عشرة على الشجرة، سمعت رأيك مرة واحدة فقط وكان ذلك كافيا لخراب بيتي، من الآن فصاعدا، لا أريد أن اسمع رأيك في شيء،

إذا تفوهت بحرف واحد سأفرغ طلقات هذا المسدس في راسك، لن انتظر زيارة جودي للبقرة.

ثم دس المسدس بين الفرشات المطوية في «الليوك» وكاد يبكي بحرقة على نقوده التي ضاعت هدرا وعلبته المعدنية الفارغة التي لم يبق لديه شيئا يرميه فيها، واستلقى.

أما جودي فقد ظل في حيرة من امره لفترة طويلة، فما هي غاية أسعد من فعل كل هذه الأمور إن لم يكن قصده حماية شيء ما.

الحمار الثامن

أمضى أبو كرم زهرة حياته سائق دبابة في الجيش، ولأن عائلته كانت تتنقل معه حيث يؤدي خدمته فإن زياراته إلى القرية كانت قليلة جدا، ويمكن القول إنه لم يكن يحضر إلا في المناسبات التي لا يستطيع التخلف عنها كالأعراس والجنازات، وكان دائما يحضر بزيه العسكري ويشعر في نظرات الجميع الموجهة إليه بشي من الهيبة التي يضفيها عليه ذلك الزي، وهذا ما كان يجعله يشعر بشيء من التميز على سكان القرية أيضا، وبلغت تلك الهيبة أقصى درجاتها عندما حصل أبو كرم على رتبة المساعد حيث علقت له على كتفيه لوحتان خضراوان أصبح يرى العالم من فوقهما وكأنه يقف على شرفة مرتفعة.

ولكن بعد خروجه إلى التقاعد وعودته للعيش في قريته بدأت تلك الهيبة تتلاشى بشكل متسارع لدرجة أنه في غضون سنة لم يعد لها وجود، فقد اكتشف أبو كرم أنه براتبه التقاعدي، أفقر سكان القرية على الإطلاق، ففي كل بيت يدخله كانت تواجهه السجادات الفاخرة المفروشة على الأرض ببذخ لم يصادف مثله، وفي كل بيت كانت الأجهزة الكهربائية متوفرة بكثرة، فلا يخلو بيت

من جهاز تلفزيون بشاشة كبيرة، وجهاز فيديو ودي في دي، وآلة تسجيل حديثة تستقبل أشرطة كاسيت وأقراص سي دي، عداك عن الغسالات الأوتوماتيكية والبرادات الشاهقة والمكيفات وكل ما يخطر في بالك من وسائل الرفاهية.

هذه الفوارق الطبقية بينه وبين الباقين ولدت في نفسه مع الزمن شعورا بالحزن والحسد، ثم بالازدراء تجاه نفسه، وبالخجل من زوجته التي كان يعتقد أن جميع نساء القرية يحسدنها لأنها زوجته، أما الأولاد، فقد حمد الله وشكره لأنهم بقوا في البيت الذي كان يستأجره في حي الأكراد على سفح جبل قاسيون، منهم من يعمل ومنهم من يدرس، ومنهم من يكش الذباب كما كان يحلو له التعبير للدلالة على البطالة، وأكثر سؤال كان يحيره، هو من أين يأتي هؤلاء بكل هذه الأموال ليبذخوا كل هذا البذخ، فلديه من الأراضي مثل ما لديهم، ويبيع من المحصول مثل الذي يبيعونه، ولكنه بخلافهم لا يتبقى معه قرش واحد بعد العشر الأوائل من كل شهر، وعندما شرح صدره لزوجته، عثرت هذه على السبب فورا متهمة إياه بالإسراف، ولكنه استبعد كليا أن يكون إسرافه سبب فقره، فالجميع في القرية ينفقون من الأموال في كل شهر ما يعادل مجموع راتبه التقاعدي في العام كله، عندها عثرت له زوجته على سبب آخر لفقره:

- لا بد أن الله يرزقهم ولا يرزقك.

- ولماذا يفعل ذلك، في حياتي لم اسرق ولم أزن ولم أتعاطى أي نوع مما حرمه الله، حتى النميمة لم تجد لها طريقا إلى لساني.

ولأن كلمات زوجته بعثت في نفسه الحنق فقد قال بصوت غاضب بعد أن صمت قليلا

- نوعا عن كل سكان القرية، أنا الوحيد الذي يمكن أن ينتمي إلى عباد الله الصالحين، فلماذا لا يرزقني؟

لم تعلق هي عندما رأت الغضب قد تسلل إلى ثنايا صوته، أما هو فقد خرج من المنزل شاعرا بالإهانة مما قالته زوجته، حيث وجد فيه نوعا من التشكيك بسلوكه وأخلاقه، ولمس سوء النية المبيت لديها.

ابن عمه موفق وضح له الصورة عندما صارحه أبو كرم متسائلا عن السر، فقال له:

- التهريب يا ابن عمي.. التهريب، من لا يعمل في التهريب هنا يموت من الجوع.

صفن أبو كرم وحسدهم في داخله على شجاعتهم، ثم تساءل:

- والجمارك؟

- الجمارك؟... عندما تقبض الجمارك على الحمير فلتحكم عليها بالسجن المؤبد.. أو حتى بالإعدام إذا أرادت.. سنعوض ما فقدناه في التهريبة التالية.

- وما شأن الحمير في ذلك؟

وشرح له موفق الطريقة، موضحا أن المهربين يحملون قوافل الحمير بالمهربات ويتركونها عند الحدود وهي بدورها تقوم بإيصال البضاعة أما نحن فنعبر الحدود ذهابا وإيابا عند النقطة فنعود لنجد الحمير في معظم الأحيان وقد سبقتنا إلى بيوتنا.

ذهل أبو كرم للسهولة التي يتم فيها الموضوع، وقرر أن يخوض غماره طالما أن المسؤولية كاملة تقع على الحمير، ولكن المشكلة الوحيدة التي وقفت عائقا في طريقه هي راس المال الذي يفترض أن يوفره لكي يبدأ بنشاطه في هذا المجال، وفي صباح اليوم التالي ركب الباص المتوجه إلى المدينة وبدأ بالبحث عن زملائه الذين تقاعد معهم.

عثر أولا على زميل له وجد عملا كسائق تاكسي في المدينة، ودار بينهما حديث عن صعوبة الحياة بعد الخروج على التقاعد واضطرارهم للعمل في مهن منها في بعض الأحيان ما هو وضيع، والذل الذي يتعرضون له بينما هم يجب أن يمضوا الوقت في الراحة والاستجمام بعد رحلتهم الطويلة مع الدبابات الفولاذية الثقيلة وجنازيرها الحديدية الضخمة، وفي نهاية المطاف شرح له قصة الحمير وحدثه عن النتائج المادية المذهلة لهذا العمل، ولم يكد أبو كرم ينهي كلامه حتى كان زميله السائق قد اقلع باتجاه البيت لكي يعطيه قرشه الأبيض الذي ادخره لليوم الأسود، وكان حجمه

خمسة عشر ألف ليرة، عندها انتقل أبو كرم إلى زميل آخر شرح له أيضا قصة الحمير وحصل منه على مبلغ لا بأس به، وإن لم يكن بنفس حجم المبلغ السابق، وحتى المساء كان أبو كرم قد اجتمع مع حوالي العشرة من رفاق السلاح وحدثهم عن الحمير وتمكن من جمع مبلغ يقدر بمئة ألف ليرة، وهو مبلغ مناسب جدا لبداية العمل في المهنة.

ولم ينتظر أبو كرم طويلا، ففي صباح اليوم التالي كان عند النقطة الحدودية بين لبنان وسوريا وتوجه فورا إلى منطقة شبعا القريبة من قريته عند الحدود، وفي طريقه اشترى الحمير من سوق للطرش سأل عنه ودلوه عليه هناك، وكان عددها سبعة حمير، وفي شبعا التقى أبو كرم بالرجل الذي دله عليه ابن عمه موفق وهذا بدوره أمن له البضاعة فورا، فقام بتحميل ثلاثة من الحمير بالحديد، وحمل ثلاثة أخرى بكراتين الدخان من ستة ماركات أجنبية مختلفة، أما الحمار السابع فحمله بأجهزة كهربائية مختلفة، ثم صعد معه الرجل الذي من شبعا إلى رأس تلة هناك وأشار له إلى المنطقة التي يجب عليه فيها أن يطلق الحمير، وهذا ما فعله أبو كرم، حيث قاد الحمير إلى هناك ثم أطلقها وتوجه بدوره إلى النقطة الحدودية لكي يعود إلى القرية.

عند عودته، وقبل النقطة الحدودية بحوالي المئة متر، حيث انتشرت الدكاكين التي تبيع العابرين مختلف أنواع البضائع مد أبو كرم يده إلى جيب شرواله وأخرج النقود التي كانت هناك، وعدها

فاكتشف أن بإمكانه أن يستفيد بعض الشيء، واشترى ثلاثة كروزات دخان دسها في أسفل شرواله ودخل إلى المركز الحدودي اللبناني ووقع الأوراق المطلوبة، ثم توجه إلى المركز الحدودي السوري، ولكن في الطريق مال أحد الكروزات الثلاثة واستقرت زاويته في نقطة ميتة من (محاشم) أبي كرم، إلا أن الوقت كان قد فات لإجراء أي تعديلات، فإن مد يده إلى أسفل الشروال ربما يثير الشكوك لدى رجال الجمارك الذين تعج بهم نقطة الحدود، عدا عن أن سلوكه هذا غير لائق بحضور أشخاص غرباء بينهم الكثير من النساء، والذين لن يفسروا ما تفعله يده في أسفل الشروال سوى تفسيرا واحدا لا بد أنه سيثير مشاعر الآخرين ويسبب له توبيخا غير لائق به في أحسن الأحوال، ولذلك فقد أخذ أبو كرم يسير وينفض رجله اليمنى جانبا بشكل حاد، آملا أن تفلت زاوية كروز الدخان الحادة من تلك النقطة التي تكاد تنغرز فيها، ورغم أن ذلك لم يجد نفعا، بل كان يؤدي بعض الأحيان إلى ألم حاد في تلك المنطقة، إلا أن مشية أبي كرم لم تكن السبب الذي أثار شكوك رجل الجمارك الذي مر أمام عينيه على هذه النقطة الحدودية من هم أكثر من أبي كرم غرابة، الذي أثار الشكوك وجعله يطلب من أبي كرم أن يقف جانبا، هو شكل المكعب الذي اتخذه أسفل شروال أبي كرم، وبطبيعة الحال فقد اقتيد أبو كرم إلى الداخل وتم تفتيشه وعثر على الكروزات الثلاثة هناك وتم توقيفه للبت في أمره، ومن حسن حظه فقد أشفق عليه المناوب وتركه في حال سبيله بعد أن صادر الكروزات الثلاث.

وصل أبو كرم إلى بيته قبيل الفجر بقليل، وأول ما فعله بعد أن أيقظ زوجته هو السؤال عن الحمير، هل وصلت أم لم تصل بعد، وعندما أخبرته زوجته بأن الحمير لم تصل بعد، شعر بقلق لم يشعر به عند توقيفه في النقطة الحدودية، وخرج إلى الخارج، صعد إلى السطح وبدا يرصد المنطقة المحيطة بالمكان لعله يلمح حمارا هنا أو هناك، ولكن السكون كان يخيم على كل شيء.

وعندما أشرقت الشمس ورصد أبو كرم حركة وأصوات في منزل ابن عمه موفق، هرع إليه يسأله عن سبب عدم وصول الحمير حتى هذه اللحظة كونه خبيرا في هذا الأمر، أما موفق فلم يكن لديه سوى تفسير وحيد:

- لا بد أن دورية من الجمارك قد صادفت الحمير فاستولت عليها.

ووعده بالسؤال في مركز الجمارك عن ذلك، وبعد الظهر أخبره أن الجمارك لم تلق القبض على أي حمار وطلب من أبي كرم أن يروي له التفاصيل لعله يستطيع أن يخمن سبب عدم وصول الحمير.

وعند وصول أبي كرم إلى النقطة المتعلقة بشراء الحمير من سوق للدواب قرب شبعا، لم يتمالك موفق نفسه وانفجر بضحك هستيري شرح خلاله لابن عمه ان الحمير تعود الى بيوت اصحابها، وبعد أن كادت تتفتق خاصرتيه من الضحك انهمرت دموعه،

وهكذا فعل بقية سكان القرية الذين علموا بالموضوع، الجميع كانوا يضحكون، ما عدا شخص واحد كان يحبس دمعه وعويله عنوة لكي يحافظ على بقايا هيبة كاد ينساها، وكان يفكر بطريقة للحصول على قرض يعيد منه ما استدانه من زملائه المتقاعدين، وتجاهل التسمية التي أطلقها عليه البعض، (الحمار الثامن) لقناعته بأن فيها شيء من الصحة.

المايسترو

أغلقت العاصمة أبوابها أمام المايسترو منذ أعوام كثيرة، تمكن هناك من اختراق الكازينوهات والعزف فيها، وعزف كذلك في الأعراس وفي السهرات ولكنه لم يتمكن من اختراق حصون الثقافة التي تعذر عليه اقتحامها فلم يستطع تحقيق حلمه بالوقوف أمام النوتة فوق المنبر والإشارة بعصاه لفيلق من الموسيقيين اجتمع أمامه على الخشبة.

عاد إلى بلدته وافتتح دكانا صغيرا استسلم فيه لقدره المحتوم ونسي الموسيقى تماما، ولكن في يوم الخميس الواقع في العاشر من تموز جاءه أبو طارق الذي يعمل في البلدية وبعث الحياة في حلمه الذي كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة.

- اليوم يومك يا «سنباطي»

هكذا كان يسميه أبو طارق الذي أخبره والفرح يعلو وجهه، أن وفدا رفيع المستوى من العاصمة سيزور مركز الناحية، وأن البلدية تكلفه بافتتاح الحفل الذي ستنظمه، وأن الحفل سينقل في بث حي ومباشر على جميع القنوات، ولم ينس أبو طارق الحديث عن الدور الحاسم الذي لعبه في دعم ترشيح المايسترو لهذه المهمة.

لم يتسع قلب المايسترو للفرح الذي دب في أوصاله فأصيب بضيق في التنفس وشعر أن رجفة تسري في مفاصله وأن روحه توشك أن تفر من أذنيه ولكنه تمالك أعصابه وأرغم نفسه أن تبقى على قيد الحياة، فقط حتى يحقق حلمه على الأقل.

أغلق الدكان وتوجه إلى البيت، أخرج بدلته السوداء الخاصة بقيادة الأوركسترا وعصاه، ونبش نوتاته من بين الكتب المكدسة على الرفوف وأخذ ينتقي منها ما يلائم الحفل المنتظر.

في الصباح كان أعضاء الفرقة الموسيقية الذين جمعهم أبو طارق من مركز الناحية والبلدات المحيطة، يتحلقون حول المايسترو على الخشبة بسلاح الميدان الموسيقي الكامل، ورغم أن عددا كبيرا من الآلات لم تكن موجودة في تلك الفرقة إلا أن المايسترو قرر أن يخوض التجربة: (بغانيني عزف على الكمان بدون قوس)، فكر المايسترو في نفسه ورفع عصاه وأعطى إشارة البدء.

الصعوبة كانت كبيرة في البداية فعازف الإيقاع لم يكن يعرف النوتة ولكن المايسترو استطاع أن يروضه عبر جلسات منفردة أقنعه خلالها أيضا أن يعرّف عن نفسه بأنه ضابط إيقاع وليس دقّيق دربكة، عازف العود بسبب عجزه عن الانسجام مع الأوركسترا أراد أن يعتذر عن المشاركة بحجة أنه مبدع ولا يقبل أن يأمره أحد، ولكن أبو طارق طبع قبلة على ذقنه وقال:

- شو بنا فريد .. كرمال أبو طارق هالمرة.

عاد عازف العود إكراما لأبي طارق، وحصلت مشاكل كثيرة مع كثيرين غيره ولكن بصبر المايسترو و (مونة) أبو طارق تم التخلص من هذه المشاكل وتذليل كافة العقبات، وبعد شهر من التدريب المتواصل كانت أمام المايسترو مجموعة يمكن بشكل ما، أن نسميها أوركسترا.

في اليوم الموعود جاء الوفد من العاصمة، وعند وصوله إلى باب المركز الثقافي كان المايسترو في مكتب المدير يتابع اتصالاته بكل أقاربه ومعارفه الذين يملكون أجهزة فيديو لكي يولفوا التلفزيون على القناة الأولى والفضائية و يسجلوا له الحفل، دخل أبو طارق ممتعضا وشده من ذراعه قائلا:

- وينك يا أخي الوفد صار عالباب.

ثم أخذ السماعة من يد المايسترو وأقفل الخط قبل أن يكمل حديثه، ركض المايسترو عبر الكواليس و صعد إلى الخشبة وخلفه أبو طارق الذي أوصاه:

- بس يبين عالباب بتعطي الإيعاز.. بدي كل شي منظم عالتكة.

ظهر الوفد بباب القاعة فحرك المايسترو عصاه في الهواء وانطلقت السمفونية، شعر المايسترو أن الأرض تتنفس وأن قلبها الذي يخفق بشدة يقع تماما تحت المنبر الذي يقف عليه، وكان يحس أن علامات المدرج الموسيقي التي تحلق في فضاء المسرح

هي الأكسجين الذي كانت تستنشقه الأرض فتنبعث تحت سطحها الحياة، وعندما أمسك أبو طارق بذراعه وشده إلى الخلف ظن أن ذلك واحد من الانفعالات التي كان يشعر بها، ولكن صوت أبي طارق الذي جاءه من الخلف :

- لحظة.. وين وين وين.. على مهلك..

جعله يستفيق من تخيلاته، التفت المايسترو نحوه وتوقفت الموسيقى وكان الوفد لا يزال يوزع التحيات لجماهير المسرح التي وقفت على جانبي الممر، فقال له أبو طارق مشيرا إلى وسط الصف الأول:

- بتعرف إنه سيادته رح يقعد هون؟

- بعرف.

- وطالما بتعرف ليش أخذت هالوضعية؟

- أيا وضعية؟

- ليش دايرله ظهرك.. هيك منستقبل الضيوف نحنا؟

استغرب المايسترو هذه الملاحظة من أبي طارق وحاول أن يشرح له:

- يا أبو طارق.. بكل العالم المايسترو بيكون وجهه للأوركسترا وظهره للجمهور.. عادي..

نفض أبو طارق بقفا يده في الهواء بغضب:

- شو بدنا بالعالم نحنا.. مو كل شي بيوردولنا اياه بدنا ناخذه متل ما هوه.. العلم والتكنولوجيا على راسي.. بس عاداتنا وتقاليدنا لأ.. ما بيصير.. هي إسمها غزو ثقافي..

انفعل المايسترو قليلا ولكنه كتم انفعاله:

- كيف يرى الموسيقيون اشاراتي إن ادرت لهم ظهري؟.. ما بتزبط يا أبو طارق.

- بتزبط.. صرلهن شهر عم يتمرنوا.. حفظوها بصم.. ليسو حميرا.

أفلتت انفعالات المايسترو من عقالها وقال:

- ما بيصير يا أبو طارق...

لم يستمع أبو طارق إلى كلام المايسترو وقاطعه قائلا:

- لا تعملي بيصير وما بيصير.. قسما بالله العظيم يا بتدير وجهك للوفد يا بقطع الكهربا وبلغيلك نمرتك كلها.

ثم حمل النوتة ووضعها في الجهة الأخرى وقال له:

- بلِّش.. الجماعة قعدوا..

وانصرف مبتعدا.

رضخ المايسترو للأمر الواقع وأخذ يعطي إشاراته باتجاه الجمهور فانحنى رئيس الوفد باتجاه مدير الناحية وهمس سائلا:

- شو.. فقرة كوميدية؟

- لأ.. سيمفونية..

- لكان ليش هذا داير ظهره للفرقة؟

أشار مدير الناحية لأبي طارق فركض باتجاهه حانيا ظهره لكي لا تلتقطه العدسات وقرفص أمام مدير الناحية:

- خير سيدي؟

- مالقيتوا غير هالجحش تجيبوه يمسك الأوركسترا.. طلاع قله يستعجل شوي بالسيمفونية تبعه ويفرقنا.

صعد أبو طارق إلى المسرح بسرعة وتوجه إلى المايسترو وهمس في أذنه:

- خف رجلك شوي وختوم نمرتك.. سودت وجهنا الله يسود وجهك.

الجريمة

حمود، مثله مثل بقية سكان أم الطنافس، لا بل مثل سكان المنطقة، وقل مثل سكان البلد برمته، كان يخاف من الشرطة، وخاصة أولئك الذين لا يرتدون الزي الرسمي، ومثله مثل معظم، ولا أقول كل أهل أم الطنافس، كان يعتقد بأن الحكومة، وهو الاسم الذي يطلقونه على الشرطة في أم الطنافس، تعلم الغيب.

بالنسبة له كان يكفي أن يرى الشرطة لكي يشعر بالوجل، فما بالك إن كان ذلك ليلا وكان في يده تنكتان ثقيلتان يحملهما ويسير بهما بصعوبة بالغة.

عندما سطعت أضواء سيارة الشرطة في وجهه، وضع حمود التنكتين على الأرض ورفع يديه إلى الأعلى علامة على استسلامه، وكان على قناعة تامة بأن الشرطة جاءت في هذه اللحظة بالذات لكي تلقي عليه القبض بالجرم المشهود، ولذلك وقبل أن يسأله أحد فقد اعترف حمود بارتكابه للجرم، أما قائد الدورية فقد شعر بالفرح لأن الجريمة انكشفت من تلقاء ذاتها، رغم أنه عادة يرغب بالتحقيق ولو لفترة قصيرة قبل أن يكتشف الجريمة، ذلك لإرضاء غريزته البوليسية وإثبات مهنيته أمام رؤسائه وزملائه ولكن هنا

في هذه الجبال الوعرة، لم يكن لذلك أهمية على الإطلاق، ولذلك فقد أمر عناصره بإلقاء القبض على حمود فحشروه معهم في السيارة واقتادوه إلى المخفر.

في المخفر فوجئ رئيس المخفر، المساعد الذي اعتاد على الأمن والطمأنينة التي سادت أم الطنافس منذ قدومه إلى هذا المكان لدرجة نسي فيها أنه شرطي، فوجئ بأن جريمة قد حصلت، أما ما بعث فيه الدهشة فوق المفاجأة فهو أن المجرم الذي ارتكب هذه الجريمة لم يكن سوى ذلك الحمل الوديع حمود، حمود الذي بالكاد تسمع صوته أو تلحظ وجوده، حمود الذي كان خادما متطوعا للجميع، ينقل الرمل مع هذا ويبني الخفان مع ذاك، ويحرث مع آخر ويدحل سطح غيره أثناء الشتاء، حمود الملاك، وعندها لم يجد المساعد بدا من أن يهز رأسه ويحدث نفسه قائلا:

- فعلا.. ياما تحت السواهي دواهي.

عندما طلب رئيس الدورية من حمود أن يروي تفاصيل الجريمة، تساءل حمود ببراءة:

- من البداية؟

- من البداية طبعا.

أمره رئيس الدورية فوضح له حمود أنه لم يشترك فيها منذ البداية، وأن الذي دفعه للاشتراك في الجريمة هو جاره يوسف، أما هو فقد كان نائما في بيته لا يفكر بارتكاب أي جريمة، ولكن يوسف

قرع بابه في حوالي العاشرة ليلا وقام بتحريضه على الاشتراك في الجريمة.

سر هذا الاعتراف رئيس الدورية، فهو قد اكتشف شريكا أساسيا في الجريمة حتى قبل أن يبدأ التحقيق، وأمر رئيس المخفر بأن يحضر له يوسف.

فتح يوسف الباب للمساعد فقام هذا بتوبيخه فورا لأنه ارتكب جريمة دون أن يخبره بذلك، وسأله عن ماهية تلك الجريمة فأنكر يوسف حدوث أي جريمة، ولكنه أمام قائد الدورية، صارم الملامح ثاقب العينين، لم يجد بدا من الاعتراف، وقال إن صالح الدكنجي هو الذي حرضه وزين له ارتكاب تلك الجريمة، فأمر رئيس الدورية بإحضار صالح موجودا، وكما أنكر يوسف عندما سأله المساعد عن ماهية الجريمة فقد أنكر صالح أيضا، ذلك أن سكان أم الطنافس بعد أن ألفوا رئيس المخفر ما عادوا يشعرون منه بالخشية التي يشعرون بها أمام رجال الشرطة الآخرين، ولكنه فور دخوله إلى المخفر ووقوفه أمام رئيس الدورية اعترف وبين لرئيس المخفر أن من دفعه وزين له ارتكاب الجريمة هو شخص آخر سماه له فأحضروه هو الآخر، وهذا بدوره ألقى باللائمة على غيره وكرت السبحة التي كان المختار آخر حبة فيها، فقد تبين أنه هو بالتحديد، الشخص المؤتمن، الذي لا تعترف الدوائر الرسمية بحسن سلوك المواطنين دون شهادته وختمه، هو من بدأ بارتكاب تلك الجريمة، وهنا شعر رئيس الدورية بالارتياح بعد أن كان الملل

قد انبعث في نفسه، وطلب من المختار أن يروي له كيف بدأت الجريمة وكيف انتهت.

بدأ المختار كلامه بعبارته المعتادة ونبرته الوقورة قائلا:

- ياسيدي الكريم، بدأت الأمور على الشكل التالي....

ولكن مكالمة على جهاز اللاسلكي الذي مع رئيس الدورية قطعت كلام المختار، فمن المركز جاء الصوت غاضبا ويتساءل عن سبب عدم وصول الدورية إلى المكان المطلوب حتى اللحظة، فوضح رئيس الدورية أنه وصل وأنه يحقق مع الفاعلين وأنه ألقى القبض عليهم جميعا، ويقوم بإجراء التحقيق، ولكن الصوت الغاضب من المركز استغرب وسأله :

- من الذي يطلق النار إذا في قرية الخربة، فأجاب رئيس الدورية أن أحدا لا يطلق النار.

وهنا لم يجد المساعد رئيس المخفر بدا من التدخل للتوضيح فقال:

- هنا ليست الخربة يا سيدي.. هنا أم الطنافس.. الخربة هي القرية التالية.

فضرب رئيس الدورية بيده على الطاولة ووبخ المساعد لأنه لم يخبره بأن هذه القرية هي أم الطنافس، وطلب منه أن يكمل التحقيق في الجريمة ثم ركب السيارة مع عناصره وانطلق مسرعا باتجاه الخربة.

المختار بدوره علم بعد هذه المكالمة أن الدورية جاءت للتحقيق في جريمة أخرى غير التي ارتكبوها، ولذلك فقد رفض أن يجيب على أسئلة المساعد الذي أراد استكمال التحقيق ونفى وقوع أي جريمة، فغضب المساعد وأمر بزجه مع بقية سكان القرية في غرفة التوقيف التي تقع في مؤخرة المخفر.

في غرفة التوقيف كان جو مشحون يسود المكان، وسكان القرية كل منهم يلوم الآخر لأنه دس عليه، ولكن عند دخول المختار ساد بعض الصمت والترقب، فأكبر رأس في القرية قد زج به أيضا، ما يدل على جدية الموضوع، أما المختار فقد رفع يده طالبا الصمت من بعض الأشخاص الذين لم يتوقفوا وأعلن بصوته الجهوري ونبرته الوقورة:

- يا شباب.. لا داعي للخوف.. الحكومة لا تعرف بفعلتنا، الحكومة جاءت للتحقيق بجريمة أخرى وقعت في قرية الخربة، وما عليكم سوى الإنكار.

لم يكن عادل مخبرا بالمعايير المتعارف عليها دوليا، فهو كان فقط يحب نقل الأخبار لرئيس المخفر شفهيا، وهذه الأخبار بدورها كانت تافهة وقليلة القيمة لدرجة أنها لم تثر فضول رئيس المخفر ولو مرة واحدة، و مع أنه لم يوجه له الشكر أبدا على أخباره التي كان ينقلها، وكان يشعر جهته بنوع من الاشمئزاز كونه يمارس الدس على أبناء قريته، فقد وجد نفسه مضطرا للجوء إليه في

هذه المرة، فأحضروه له في الحال وقام بزجه مع بقية أهل القرية في غرفة التوقيف طالبا منه أن يعرف منهم ما هي الجريمة التي ارتكبوها ويخبره بها.

أما في غرفة التوقيف فقد ساد الصمت بعد دخول عادل، ذلك أنهم يعرفون جميعا بحبه لنقل الأخبار، ما جعل عادل يشعر بأنه منبوذ بين أهله، ولكي يثبت إخلاصه لهم فقد سرد عليهم ما أمره به المساعد وحذرهم من أن التحقيق سيستمر حتى يتم اكتشاف الجريمة، وهنا عاد القلق إلى نفوس المعتقلين وعاد كل منهم يلوم الآخر لأنه دس عليه، ولكن المختار، في الوقت الذي كان الجميع يلومون بعضهم البعض، كان قد أعمل دماغه وتوصل إلى حل للموضوع.

- لن يكتشف أحد شيئا، لا تخافوا
- الحكومة ليست عاجزة، سيكتشفون الجريمة إن عاجلا أو آجلا.
- وإذا لم يكن هناك جريمة من أصله.

تساءل المختار بنظرة ماكرة، فعلق أحدهم

- ولكن الجريمة وقعت.

ألقى عليه المختار نظرة لا تخلو من التهكم وقال:

- إذا أعدنا كل شيء إلى مكانه هل تكون الجريمة قد وقعت؟

ولم يكد المختار ينهي جملته حتى كانت الأيدي قد تمكنت من

خلع الشبك الحديدي الذي يغلق نافذة غرفة التوقيف، وفي غضون دقائق كان الجميع قد قفزوا إلى الخارج.

ويمكن القول إن العملية قد تمت بسرعة فائقة، ففي غضون أقل من نصف ساعة كان جميع سكان القرية قد تقاطروا على الصهريج الذي كان يقف معطلا على جانب طريق القرية، كل يحمل في يديه تنكتين من المازوت ويقوم بسكبها في الصهريج.

وكما خرج جميع المعتقلين من نافذة غرفة التوقيف، فقد عادوا منها أيضا وأعادوا الشبك الذي اعتادوا خلعه دائما إلى مكانه، وقبل أن يقرع الباب لكي يتم إخراجه من هناك، تساءل عادل:

- يا شباب.. الكل رجعوا المازوت؟

فطمأنه الجميع، وعندها دق عادل على الباب الحديدي لغرفة التوقيف فجاء عنصر وفتح له وأخرجه.

في غرفة رئيس المخفر فعل عادل ما لم يكن يفعله سابقا، فقد جلس على الكرسي الذي كان أمام مكتب ريس المخفر، ووضع رجلا على رجل، وأعلن للمساعد:

- عرفت ما هي الجريمة.. لقد سرق سكان القرية المازوت من الصهريج الذي تعطل عند مدخل القرية.

ولكن عادل لم يكمل كلامه، فقبل أن ينهي جملته الأخيرة كان رئيس المخفر قد وثب من خلف مكتبه وخرج من الغرفة وسمع صوته يتحدث بشيء ما لعناصره.

وبعد دقائق وكان الفجر قد بدأ يرسل خيوطه الأولى، شوهد جميع عناصر المخفر وفي مقدمتهم المساعد، يحمل كل منهم تنكتين ثقيلتين ويركضون بصعوبة في طريق القرية، ويتوقفون عند الصهريج المعطل ثم يصعد أحدهم إلى ظهره ويناوله الباقون من الأسفل تنكات المازوت، فيقوم هو بسكبها داخل الصهريج.

شهادات وفاة

كان الشبان الثلاثة متفقين على كل شيء تقريبا، وفي حال توفي الوالد فإن أي خلاف على توزيع الإرث لم يكن لينشب بينهم، فكل يعرف حصته من أملاك الوالد وكل راض بها، ولكن المشكلة أن الوالد الذي يقيم في منزل شيده في أحد كرومه في الجبل و يعيش بمعزل عن البشر لا يزور أحدا ولا أحد يزوره منذ خمسة عشر عاما، أي منذ وفاة والدتهم، كان كلما مر الزمن يزداد صحة، وبالتالي لم يكن هناك ما يوحي بأن الارث سيتم توزيعه بشكل طبيعي قريبا، وللحقيقة فإن الشبان الثلاثة لم يكونوا يتمنون لوالدهم غير موفور الصحة والعافية، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يتمنون لو أن والدهم يقوم بتوزيع الأملاك عليهم لكي يتمكن كل منهم من استثمار الأرض أو العقار بالشكل الذي يلائمه ويساهم بشكل جدي في رفع مستوى معيشته، فقد كانت معظم أملاكهم مجمدة لا يستطيع أن يتصرف بها أحد، لأن الوالد كان يسيء الظن بهم ويرفض تخويل أحدهم بأي صلاحية، فإضافة إلى أنه يرفض توزيع هذه الأملاك عليهم، كان يرفض التوقيع على وكالة عامة لأحدهم تسمح له بالتصرف بها.

لم يكن الأب يمنع ابناءه من العمل بالأرض والحصول على مردودها من المحاصيل المختلفة، ولكن الطامة الكبرى كانت في عدم جدوى ذلك، فتكاليف زراعتها وحصادها كانت تفوق مردودها، وبالتالي فإن أحدا لم يكن لديه الرغبة في العمل فيها، ولهذا فقد تركت الارض دون أن يستثمرها أحد لسنوات طويلة، في الوقت الذي يمكن فيه تحويل قطعة منها إلى مقصف صيفي يؤمه السياح ويدر مردودا وافيا، وقطعة أخرى كان الابن الأصغر الذي يدرس في السنة الأخيرة في كلية البيطرة ينوي تحويلها إلى مزرعة أو مدجنة، أما الأوسط فقد كان يريد بيع أرضه وفتح محل تجاري لا تقارن به كل اراضيهم المهملة، أما حصة أخيهم منير الذي سافر منذ أحد عشر عاما تقريبا إلى بلد ما في أمريكا فسيتركونها له حتى يعود، أو يرسل لهم ما الذي عليهم فعله بخصوصها، غير أن ذلك كان ضربا من الأحلام، فعشرات المحاولات التي بذلوها في إقناع والدهم بتوزيع الأرض أو كتابة وكالة عامة لهم، كانت تنتهي بعبارة أبيهم المعهودة:

- أتريدون أن ترثوني وأنا حي ياسفلة؟!!

التي يختمها بحمام التف عليهم:

- تفو عليكم يا كلاب.

ثم يندب حظه مستذكرا منير، أقرب أولاده إلى قلبه، والذي لا يعلم إلا الله في أي أرض هو الآن من بقاع أمريكا الفسيحة:

- لماذا سافرت وتركتني لهذه الذئاب المسعورة يا منير، يا ليتك كنت موجودا لكي ترى ما الذي يفعله أخوتك بي.

وعندما كان الأصغر بسبب انزعاجه من هذا التمييز يصارحه بأن منير لو كان يتذكرك لأرسل لك رسالة، كان الأب يتهمهم بأنهم يخفون رسائل منير عنه، لكي لا يعلمه بما يفعلون فياتي ويضع لهم حدا.

آخر مرة كان فيها الأبناء الثلاثة عند والدهم في الجبل انتهت بنفس الطريقة كما في كل المرات السابقة، وبعد عودتهم ساد صمت طويل فضله كل منهم على البوح بأفكار مخجلة كانت تدور في رأسه بخصوص الوالد، ولكن الابن الأكبر كان الأقل صمودا بينهم، فقد عجز عن الاحتفاظ بما كان يفكر فيه داخل رأسه، وقرر أن يبوح لشقيقيه بما يفكر، ولكنه كان عاجزا عن فعل ذلك دون أن يتلوى خجلا ويميل بعنقه ذات اليمين وذات الشمال، ويضيق عينيه ويمسح العرق الذي انبثق على حين غرة من مسام جبهته:

- أنا سمعت أنه يمكن إجراء عملية حصر الإرث دون أن يكون الشخص متوف.

هكذا رمى الابن الأكبر فكرته، كما يرمى الطعم للأسماك، مما اثار فضول أخويه اللذين سألاه:

- كيف؟

عاد الابن الأكبر يتلوى ويمسح العرق عن جبهته من جديد وتابع:

- سمعت أنه يمكن توزيع إرث الشخص إن لم يكن بكامل قواه العقلية.

لم يكمل الابن الأكبر كلامه حتى انهال عليه التف والتوبيخ:

- أتريدنا أن نودع أبانا مشفى الأمراض العقلية يا تافه.. تفو عليك

هذا ما قاله الابن الأصغر طالب السنة الأخيرة في كلية البيطرة، أما الابن الأوسط صاحب دكان المستقبل فقال معاتبا بنبرة اقل حدة:

- انخسر سمعتنا الطيبة بين الناس من أجل المال، لا والله يا أخي.. افضل أن أموت جوعا على وضع والدنا في مشفى الأمراض العقلية.. تفو عليك على هكذا فكرة.. فعلا تفو عليك.

الابن الأكبر الذي شعر بكمية الاحتقار نحوه، في نظرات أخويه وكلامهم كادت الدموع تنفر من عينيه على الغبن الذي لحق به، ووضح بصوت متهدج وهو على وشك البكاء:

- يا أخي قبل التف والنف واتهام الناس بما ليس فيهم، اسألوني ما الذي اقصده أولا ثم افعلوا ذلك، من قال لكما إنني اريد وضع والدنا الحبيب في مشفى الأمراض العقلية.

- كيف ستفعل ذلك إذا؟

- مجرد قصاصة.. قصاصة من ورق مكتوب فيها أن السيد محسن شلاشل ليس بكامل قواه العقلية، نقدمها للمحكمة ونقدم

طلبا لإجراء حصر الإرث، أما الوالد أطال الله عمره فيبقى كما هو، يعيش في الجبل لا يعلم بشيء، هو في كافة الأحوال لا يعلم بشيء.

- وكيف نحصل على هذه القصاصة؟

هدأ شقيقاه بعد أن راقت لهما الفكرة فأجابهما:

- ندفع رشوة لطبيب ونحصل على شهادة تثبت ذلك.

لم يجدوا صعوبة في العثور على الطبيب الذي وضع الرشوة في جيبه ووقع لهم الشهادة وذيلها بختمه الشخصي في غضون خمس دقائق، ولكن المحكمة لم تقبل بالشهادة الصادرة عن الطبيب، وطلبت شهادة موقعة ومختومة من قبل اللجنة الطبية المختصة بهذه الأمور.

اللجنة حددت لهم موعدا وطلبت منهم إحضار الوالد، وعندما اعلن الأولاد أن والدهم عاجز عن الحركة طلبت اللجنة العنوان ودفع تكاليف التنقل لكي يذهب اعضاؤها لمعاينة الوالد، وبطبيعة الحال لم يفعل الأبناء ذلك، فقد خرجوا من المشفى الذي يقع فيه مقر اللجنة وقد أدركوا مدى سخافة الفكرة التي خطرت للابن الأكبر.

وهكذا عادت الحياة إلى طبيعتها من جديد ونسي الأبناء موضوع والدهم وأخذ كل يمارس حياته المعتادة، إلى ان ضاقت بهم الأمور من جديد فقرروا العودة إليه مجددا لعل رأسه يكون

قد لان خلال الفترة المنصرمة، ولكن اللقاء انتهى كما كل اللقاءات السابقة، طردهم الوالد شر طردة بعد أن وبخهم وتف عليهم وتذكر ابنه منير التائه في أمريكا ولامه لأنه تركه فريسة لهذه الذئاب البشرية.

في المنزل ساد الصمت من جديد ودارت الأفكار السوداء التي لم يجرؤ الأبناء على البوح بها، من جديد أيضا، وكاد الابن الأكبر يبوح بما يفكر به، ولكنه قرر التريث، لكي لا يكون أول المعلنين عن ألمه في لعبة عض الأصابع هذه، وبالفعل فبعد دقائق استسلم الأوسط وتساءل يائسا:

- وماذا بعد؟

- ماذا بعد؟ علينا أن ننتظر حتى يتم كل شيء بشكل طبيعي.. بعد عمر طويل طبعا.

رد الابن الأكبر بنبرة مستسملة، بينما نوه الأصغر:

- وهذا يعني أن حصر الارث ربما لن يحصل قبل أن نزوج أبناءنا، لا داعي لكي اذكركم بأن جدنا عاش مئة وخمسة عشر عاما، وجد والدنا عاش مئة وعشرين، والولد أدام الله صحته ينوي تكرار مآثر اجداده في أغلب الظن.

هنا وجد الابن الأوسط الفرصة المناسبة لطرح فكرته كاملة غير منقوصة فقال:

- وهل من الضروري أن ننتظر حتى يجري كل شيء بشكل طبيعي.

اكفهر وجهي أخويه لهذه الفكرة السوداء وبصق طالب البيطرة وأخوه الأكبر في وجهه معا:

- تفو عليك يا كلب.. اتريد أن نقتل والدنا.

- ألم يبق بك ذرة شرف يا تافه.

مسح الأوسط وجهه بمحرمة، لأن التف لم يكن معنويا هذه المرة، ففكرة القتل التي ظن أخواه أنه يفكر بها، جعلتهما يفعلان ذلك بكل ما أوتيا من لعاب، ثم قال معاتبا إياهما:

- ألا تخجلان من نفسيكما، أنا عاجز عن ايذاء نملة، فكيف أفكر بقتل والدنا، سامحكما الله.

ثم أجهش بالبكاء مما دفع أخويه للاعتذار منه والشعور نحوه بالشفقة وسؤاله عن قصده، فقال:

- ورقة، مجرد ورقة، شهادة وفاة، من عند المختار نقدمها لمصلحة العقار ونجري حصر الإرث، بينما يبقى والدنا حي يرزق في الجبل.

ثم دق على صدره وتابع:

- وأنا سأتكفل بخدمته بأهداب عيني إن لزم الأمر.

نظر الابن الأكبر إلى الابن الأصغر الذي بدا عليه من تعابير وجهه، أنه موافق، ثم التفت إلى الأوسط وقال:

- واللّه، طالما الموضوع حبر على ورق، فإنني لا أرى مانعا.

وكذلك قال طالب البيطرة، ثم توكلوا على اللّه وذهبوا إلى المختار، ولأنهم يعرفون أن المختار على الأغلب لن يوافق، فقد قرروا مغافلته والحصول على شهادة وفاة فارغة، ثم غافلوه وحصلو على الختم الذي ذيلوا به الشهادة الفارغة، أما توقيعه فلم يكن من الصعوبة تزويره على طالب كلية البيطرة الذي كانت لديه مواهب فنية دفينة.

موظف دائرة النفوس التي ذهبوا إليها لتثبيت شهادة الوفاة، بعد أن قلب السجل الضخم الذي بين يديه رفع رأسه إلى الأولاد الثلاثة وسألهم بنبرة لا تخلو من التهكم:

- مات مرة اخرى؟

لم يفهم الأولاد ما الذي يقصده الموظف الذي وضح لهم عندما لاحظ الحيرة على وجوههم:

- الرجل متوف منذ أحد عشر عاما.

لم يفهم الأولاد عما يدور الحديث، وكانوا على ثقة بأن خطأ ما قد حصل، وفي داخل كل منهم تولد شعور بالارتياح لأن الأمر تم دون أن يستخدموا الورقة المزورة التي حصلوا عليها، وبذلك يكونون ابرياء من هذه المؤامرة، ولكن الصدمة كانت على بعد ساعة ونصف تقريبا، فعندما ارادوا الحصول على إخراجات القيد

لإرفاقها بطلب حصر الإرث الذي سيقدمونه لمصلحة العقار، رفع موظف النفوس عينيه نحوهم بعد أن قلب مرارا صفحات سجله الكبير وقال بنبرة لا تخلو من التهكم ايضا:

- هل عادوا للحياة مرة أخرى.

لم يفهم الأبناء قصده فوضح لهم كعادته بعد أن لاحظ الحيرة على وجوههم:

- هذه الأسماء مقيدة عندي في خانة الأموات، منذ أحد عشر عاما.

- ولكننا أمامك.

- وما الذي أدراني أن الذين أمامي هم أنفسهم أصحاب بطاقات الهوية هذه، انا عدم المؤاخذة لا أعرفكم، ثم أنني حتى لو كنت أعرفكم، فليس بإمكاني شطبكم من خانة الأموات وإعادتكم إلى خانة الأحياء، الامر يتطلب...

لم ينتظر الأخوة الذين صدموا بالموضوع حتى ينهي الموظف كلمته البيروقراطية، وتوجهوا إلى المختار الذي صدرت شهادات الوفاة عنه، ولكنهم لم يجدوه، فالمختار عندما علم بما جرى توجه من فوره إلى العاصمة حيث يقيم أخوهم منير الذي يعتقدون جميعهم أنه في أمريكا، والذي أصدر شهادات الوفاة جميعها بالاتفاق مع المختار لكي يتمكن من بيع الأرض التي لم تعد منذ زمن بعيد ملكا لا لهم ولا لأبيهم.

منير ضحك هازئا من قلق المختار، وطمأنه قائلا:

- أنت لا علاقة لك بالموضوع، أنا المسؤول، أليس لديك شهود انني أنا الذي أخبرتك بوفاة أخوتي والوالد، بعيد الشر عنهم جميعا؟

- المختار ليس لدي ولكن يمكن تدبير الأمر.

- دبره إذا، لما أنت خائف؟

قال له منير بنبرة تهكمية بينما كانت زوجته قد أحضرت القهوة.

في أم الطنافس بعد دعوى غريبة من نوعها أقامها الأخوة الثلاثة تم إعادتهم مع أبيهم إلى خانة الأحياء مرة أخرى، ولكن الدعوى ضد الأخ الغائب منير الذي باع كل أملاك أبيه وإخوته (المتوفين) ما عدا المنزل الذي يقيمون فيه والكرم الذي يقيم فيه والدهم في الجبل، فقد أغلقت دون الإقرار فيها بحكم بسبب وفاة المدعى عليه منير شلاشل منذ عشرة اعوام تقريبا.

أما منير الذي قابله المختار في العاصمة فهو منذ عشر سنوات تقريبا لم يعد منير، انه سعيد جرباقة، وهو ليس من ام الطنافس.

صراع البقاء

منذ ان ورث الدكان عن أبيه، اعتاد صالح ان يبيع كل البضاعة التي يعرضها وكذلك التي يخزنها، فقد خبر على مدى السنين الطويلة التي عمل خلالها في هذا الدكان كمية البضاعة التي يستهلكها سكان البلدة يوميا وأسبوعيا وشهريا ولهذا السبب بالذات فهو لم يكن يعاني من النقص في بضاعته، كما لم يكن يعاني من الكساد، ولذلك يمكن القول إنه كان يعيش مستقرا مطمئنا مرتاح البال.

ولكن صالح في الآونة الأخيرة أخذ يشعر ببعض التغير يطرأ على عمله، فقد زاد لديه على السقيفة علبتان من السمن وعشر علب جبنة وثلاث زجاجات من الزيت وأشياء أخرى متفرقة، الأمر الذي اثار استغرابه وقلقه، وهذا ما عبر عنه لجاره حسن الذي يبيع الخضراوات في الدكان الملاصق لدكانه، والذي لسبب ما أدار وجهه جانبا، اثناء حديث صالح، متحاشيا ان تلتقي عيناهما.

حسن لم يبدأ العمل في الدكان المجاور منذ وقت طويل، فالبلدة لا تحتمل دكانين في الساحة، دكان حسن كانت في السابق محلا يمارس فيه ملحم الكندرجي مهنته في تصليح الأحذية، ولأن ملحم

لم يورث مهنته لأحد من أبنائه الذين علمهم في الجامعات فأصبح مستواهم أعلى من مهنته، قام الأبناء بتأجير الدكان لحسن منذ عام ونصف، وقد وضع صالح عليه شرطا لكي يوافق على فتح الدكان، أن تقتصر بضاعته على الفواكه والخضراوات، لكي لا تحصل عملية مضاربة، وبالفعل فقد التزم حسن بالاتفاق المعقود بينه وبين صالح لمدة سنة أو أكثر قليلا، فهو العسكري المتقاعد لم يكن يدرك عندما وافق على الشرط أن مجتمع القرية الذي كاد ينساه خلال سنوات خدمته الطويلة، نادرا ما يشتري الفواكه والخضار فجميعهم لديهم أرض يزرعونها، ولذلك فقد كانت مبيعاته تقتصر على الفواكه التي لا تنبت في حقول فلاحي أم الطنافس، وقد كانت قليلة جدا، أما بقية البضاعة فقد كانت تخم وتتعفن، ولهذا فقد بدأ يشتري بضائع من تلك المتوفرة في دكان صالح، وأخذ يسر لبعض اصدقائه وأقاربه بما يفعل لكي يشتروا منه، فأخذوا يفعلون ذلك بكل سرور، خاصة أن حسن ليس تاجرا خبيرا، و يلتزم بتسعيرة التموين أي أن بضاعته كانت أرخص من بضاعة صالح بمبلغ كبير، ويوما بعد آخر انتقلت الأخبار من شخص إلى آخر حتى علم كل سكان أم الطنافس بأن حسن يبيع بأرخص من صالح، وهكذا فقد وصل الأمر بصالح في نهاية المطاف إلى كساد كل بضاعته فكاد يجن جنونه، خاصة عندما علم أن حسن هو وراء ذلك، فتوجه الى دكان حسن فورا وذكره والعتب يفوح من صوته وحركاته وحتى مسامات جسده:

- هذا ليس اتفاقنا يا جار.

تبرم حسن وازدرد لعابه ولوى عنقه يمينا ثم شمالا وشعر بكل ما يشعر به الخائن عندما يضبط بالجرم المشهود، وهذا ما لاحظه صالح الذي تابع هجومه:

- من الطبيعي ان تشعر بالخجل، أنا افهمك تماما، فما قمت به يبعث على الخجل، فقد اتفقنا على غير هذا الكلام.

صفاقة صالح التي حشرت حسن في الزاوية لم تترك له مهربا من الرد فقال بنبرة زاخرة بالشكوى والألم:

- وما العمل يا جار؟ لا احد يشتري الخضار والفواكه هنا، اتكبد خسائر فادحة بسبب ذلك.

- اعرف ولكننا اتفقنا.

- صحيح اتفقنا، ولكن يا جار الأولاد في الجامعة بحاجة لفت عملة.

- هذه مشكلتك، نحن منذ البداية اتفقنا...

مفردة « اتفقنا» التي أخذ يكررها صالح في مطلع كل جملة يقولها، أخذت تثير حساسية حسن واشمئزازه فصاح به غاضبا:

- يا أخي الدول تنقض العهود والاتفاقات، فما بالك بالعبد الفقير حسن الذي لا يجد ما ينفقه على اسرته.

عند هذه النقطة وهذا التصريح لم يعد هناك فائدة من النقاش، فقد أدرك صالح ان حسن كسر حاجز الاحراج وتحول

من الخضراوات إلى السمانة، شاء من شاء وأبى من أبى، فعاد إلى دكانه مودعا صالح بنظرة ثاقبة شعر حسن انها خرجت من قفا رأسه، ولهذا السبب بالذات تحسس قفا رأسه.

عندما فقد صالح الأمل من حسن، قرر ان يضغط على الزبائن ولذلك فقد دعى أول شخص خرج من دكان صالح إلى الشاي وصارحه:

- كنت أتوقع من الجميع ان يفضلوا حسن إلا أنت، ايعقل يا رجل ان تشتري من عند حسن وتمتنع عن الشراء من عندي بعد كل هذه السنين.

شعر الزبون بالاحراج قليلا ولكنه صارح صالح:

- يا اخي صالح ضع نفسك مكاني، إذا كان أمامك علبة حلاوة بثلاثين ليرة وأخرى بخمس وعشرين ليرة فايهما تشتري؟

- اشتري الماركة الأفضل بغض النظر عن السعر.

- وإن كانتا من نفس الماركة؟

- اتريد القول إن حسن يبيع نفس الماركة بخمس وعشرين ليرة.

- نعم وإضافة إلى ذلك فهو لا يفتح علبة المحارم من خاصرتها لكي يخرج منها الهدية.

هز صالح رأسه وكادت عيناه تغرورقان بالدموع بعد أن شعر بما يشبه المؤامرة فيما يحاك ضده.

خفض صالح اسعاره لكي يسترد زبائنه الذين سرقهم حسن، ولكن حسن فعل مثله على الفور، ودارت بينهما معركة مضاربة لم تشهد بورصات نيويورك معارك بحدتها.

عندها لم يبق أمام صالح سوى طعنة من الخلف يوجهها لحسن تقصم له ظهره وتجعله يعجز عن فتح الدكان مرة أخرى، صالح بالطبع ليس قاتلا ليوجه الطعنة النجلاء بيده لحسن، هو كان يقصد ذلك بالمعنى المجازي للكلمة عندما تحدث عن الموضوع لزوجته، فالذي سيفعل هذا هي دورية التموين، ولكي تحضر دورية التموين لا بد من طلب مساعدة حسان ابن قريتهم الذي يعمل في بلدية الناحية.

طمأنه حسان بأنه لا مشكلة في ذلك، ووعده بأن تكون دورية التموين على باب دكان حسن صباح غد، ولكنه طلب منه مبلغا من أجل التكسي الذي ستحضر فيه الدورية ذهابا وإيابا، لأن الدورية لا تتنقل بوسائط النقل العامة، وطلب كذلك رشوة لرئيس الديوان لكي يوافق على كتابة امر المهمة، دفع له صالح المبلغ الذي يريده دون تردد وشعر بالاطمئنان على مستقبله لأن أحلام حسن ستدمر تماما صباح غد، ولكي يطمئن بشكل كامل فقد طلب صالح من حسان، ان يسعى لكي يكون موظف التموين الذي سيرسلونه على راس الدورية من أولئك الذين لا يقبضون الرشاوي، ووعده حسان خيرا رغم أن هذا ربما يكون من سابع المستحيلات كما قال حسان، وهكذا عاد صالح إلى البيت يشعر بسرور من أزاح عن صدره جبلا.

عندما حان موعد نومه لم يشعر صالح بصعوبة كبيرة في الاستسلام للنعاس، ولكنه بعد أن غفا بساعة تقريبا، اخذ يتقلب ويتشنج بين فترة وأخرى، ثم أخذ يتصبب منه العرق البارد وضاق نفسه، وبعد ذلك قفز لاهثا بالكاد يلتقط أنفاسه وأخذ يتحسس رقبته، قدمت له زوجته الماء على عجل فغب من الكأس ما استطاع، وعندما تساءلت زوجته عما جرى صارحها صالح بأن ضميره يؤنبه لأن ما فعله سيدمر حسن الذي لم يقدم على العمل بعد التقاعد إلا لكي يعيل أسرته، فأيدته زوجته في ذلك وأعربت له ان ما فعله ينافي الضمير والأخلاق، وأنها أرادت أن تقول له ذلك من البداية، لكنها خشيت أن تثير غضبه، وهكذا فقد ذهب صالح في اليوم التالي إلى دكانه في وقت ابكر من المعتاد.

وبينما كان يفتح الدكان كان حسن قادم من بعيد يصيح به:

- لا تفتح دكانك يا جار.. لا تفتح دكانك.

نظر إليه صالح مستغربا وسأله عن السبب فصارحه حسن بأنه اتفق مع حسان أن يرسل التموين لكي يغلقوا له الدكان، وبكى واعتذر وأكد لصالح انه ليس من هذه النوعية ولكن لحظة ضعف بشري ألمت به جعلته يفعل ذلك، ثم أخرج المفاتيح من جيبه يريد أن يفتح دكانه فطلب منه صالح ألا يفعل ووضح له أنه هو ايضا قام بالفعل عينه و اتفق مع حسان وأن ضميره حرمه النوم في الليلة الفائتة، فتعانقا وبدأت جولة من الاعتذار الطويل قررا بعدها

ان يتوجها إلى البلدية لمقابلة حسان والطلب منه أن يتدخل لعدم ارسال دورية التموين.

اخبرهما حسان في البلدية انه من المستحيل إلغاء الدورية، وأن ذلك يتطلب رشوة لرئيس الديوان لكي يقوم بذلك، فدفع كل منهما المبلغ المطلوب وعادا يشعر كل منهما براحة ضمير كان يقض مضجعه ليلة كاملة.

سعيد ابن عمي حمار

لم ينتسب سعيد إلى الحزب الشيوعي نتيجة لتأثره بالفلسفة الماركسية، فهو قبل انتسابه للحزب لم يفتح كتابا له علاقة بهذه الفلسفة، كما أنه لم يفعل ذلك بعد انتسابه للحزب، ورغم سماعه للعديد من المحاضرات المتعلقة بهذا الموضوع في الاجتماعات الحزبية إلا أنه لم يكن يفهم منها شيئا، فقد كان في معظم الأحيان يشرد ويفكر في موضوع آخر لا علاقة له بالسياسة بتاتا، ولكنه كان يحفظ العديد من عناوين الكتب والشعارات التي يرفعها الحزب، وكان هذا كافيا ليصبح سعيد من عداد المثقفين ضمن معايير القرية التي كان يعيش فيها، ولكن اعتباره مثقفا لم يكن كافيا لرفعه إلى مصاف الوجهاء في القرية، ولهذا فهو لم يصبح وجيها بسبب ثقافته ولكن بسبب ضيوفه، فبعد أن انتسب للحزب الشيوعي اتخذت حياته منحى جديدا فقد أصبح من بين زواره معلمو مدرسة وموظفون لهم قيمتهم وأحيانا أطباء ومهندسون كانوا جميعا أعضاء في الحزب الشيوعي ويأتون إلى القرية في مهمات حزبية، ولذلك فقد ارتفعت هيبة سعيد في القرية بشكل شاقولي، ففي غضون سنة تحول من شخصية مغمورة إلى شخصية يتباهى الجميع بمعرفتها، خاصة وأن أحد المهندسين الذين كانوا

يزورون سعيد كان في العام الماضي مشرفا على عملية تعبيد طريق القرية وكانت كلمة من سعيد تكفي الشخص لكي يقبله المهندس للعمل في هذا المشروع، كما أنه كان يعطي قصاصات وساطة لدى هذا الطبيب او المهندس اوالموظف الذين بدورهم يؤدون الخدمات لهؤلاء برحابة صدر بعد اطلاعهم على توصيات الرفيق سعيد، وقد ارتفعت شعبية سعيد بشكل خاص بعد أن قام نائب البرلمان عن الحزب الشيوعي بزيارته، و الحقيقة أن تلك لم تكن زيارة بكل معنى الكلمة، فالنائب جاء ليقود اجتماعا حزبيا لبعض الكوادر الحزبية في القرى المجاورة، وكانت قرية سعيد تتوسط هذه القرى فاختير بيت سعيد مكانا للاجتماع كونه الرفيق الوحيد في القرية.

ولأن مكانته الحزبية لم تكن تخوله بحضور الاجتماع فقد اقتصرت مشاركة سعيد في هذا الاجتماع على واجبات الضيافة، حيث أنه كان يقدم الشاي بين الحين والآخر وإذا احتاج أحدهم لمنفضة سكائر يقدمها له، إضافة إلى إفراغ المنافض وغسلها كلما امتلأت أمام الرفاق، كما أنه ذبح خروفا ودعا بعض وجهاء القرية إلى الغداء على شرف النائب بعد انتهاء الاجتماع، أما النائب فقد جاء وذهب ولم يعرف من هو صاحب البيت، ولكن هذا لا يهم و يكفي اجتماع مثل هذا الجمع الغفير من الشخصيات رفيعة المستوى في بيته ليصبح سعيد أهم شخصية في القرية، حتى أهم من المختار، خاصة وأن أهل القرية لم يكونوا يميزون بين البرلمان والحكومة وبين النائب والوزير وكل هذه المؤسسات كانت تمثل لهم السلطة،

ولذلك فقد أخذ سكان القرية يقدمون العرائض لسعيد بدلا من المختار، خاصة أن العرائض التي كانت تقدم لسعيد كانت تُنَفّذ بعد أن يوصلها سعيد للرفيق النائب عن طريق الحزب، أما العرائض التي كانت تقدم للمختار والذي كان بدوره يرفعها للمحافظ فقد كانت تهمل ولم تنفذ أي عريضة منها، الأمر الذي اشعل الحقد في صدر المختار وكاد يرسل بعضا من ازلامه ليتسللوا إلى بيته ليلا لكي يأدبوا به القرود ويعلمونه ما هو جزاء أولئك الذي يتطاولون على مقام المختار، ولكن زوجة المختار كانت أكثر حكمة ونهته عن فعل ذلك، ولفتت نظره إلى أن قيمة سعيد نابعة من انتسابه للحزب فلم لا ينتسب هو إلى الحزب وبذلك يضع سعيدا خلف ظهره، وراقت الفكرة للمختار وتراجع عن فكرته الدموية التي كان قد أزمع القيام بها، ولأنه لا يعرف أحدا من اعضاء الحزب غير سعيد فقد توجه إلى بيته وقرع بابه وأفصح له عن رغبته.

سعيد لم يشعر بالفرح لأن عدد اعضاء الحزب سيزداد واحدا في القرية، فالمختار في نظره وكما علمه الحزب يعتبر رمزا من رموز الأقطاع، إحدى الطبقات المستغلة (بكسر الغين)، ولكن وبصفته ابن قرية فقد كان من الصعب عليه رد المختار دون تلبية رغبته فرحب به وأدخله وأملى عليه ديباجة طلب الانتساب للحزب وطلب منه التوقيع عليها، غير أن المختار إمعانا منه في التملق قرر أن يبصم ويضع ختم المخترة على الطلب، وعندما قدم سعيد الطلب لسكرتير فرقته الحزبية اعتذر عن اقدامه على هذا الفعل وحاول

أن يبرر موقفه ولكن سكرتير الفرقة طمأنه وربت على كتفه و شرح له ظاهرة ما يسمى بـ «الانسلاخ الطبقي» وطلب منه أن يبلغ المختار أن الحزب سيدرس طلبه ويرد عليه.

ولكن لسوء حظ سعيد والمختار وكل أعضاء الحزب فقد حدث في تلك الليلة بالذات انقلاب عسكري وكان الرفيق النائب أول شخص تم جره من فراشه ليلا بثياب النوم ليودع السجن، ونفس الأمر حدث مع الكثيرين من رفاق سعيد.

أزلام المختار زفوا الخبر لمختارهم كما لو أنهم يقدمون له هدية لا تقدر بثمن، وأعلموه انهم سيقومون بالوشاية به إلى الشعبة الثانية، ولكن دهشتهم كانت كبيرة عندما طلب منهم المختار عدم فعل ذلك، وأخبرهم انه طلب من سعيد أن ينظمه في الحزب، فطمأنوه قائلين ان الجميع يعرفون أن المختار عدو لكل الأحزاب ومن المستحيل أن يفعل ذلك، ولم يجد المختار بدا من التوضيح بأن طلب الانتساب مكتوب بخط اليد وممهور ببصمته وختم المخترة، وعندها ضرب الأزلام كفا بكف ولم يخفوا تذمرهم من الحماقة التي ارتكبها مختارهم الذي قال مبررا: (هذا جزاء من يسمع كلام النسوان).

في الليل عندما سمع سعيد وقع اقدام في باحة الدار، ظن أن عناصر الشعبة الثانية جاءوا لاعتقاله، ولذلك فقد حمل حقيبته التي أعدها مسبقا لهذا الأمر وفتح لهم الباب، لكنه فوجئ باشخاص

ملثمين يرتدون الزي الفلاحي وينهالوون عليه ضربا ثم يقيدونه بحبل ويبدأون تفتيش البيت مبعثرين الأغراض كما لو أنهم مجموعة من الوحوش تنبش جوف فريسة، وبعد فترة تركوه ملقيا على الأرض مقيدا بالحبال وانصرفوا دون أن يتمكن من معرفتهم، أما هم فقد نزعوا اللثام في بيت المختار واعلنوا له أن طلب انتسابه غير موجود في بيت سعيد، عندها لم يجد المختار بدا من الذهاب بنفسه إلى منزل سعيد من أجل الحصول على طلب الانتساب، وما هي إلا ربع ساعة حتى كان يفك عن سعيد الحبل ويلعن اولاد الحرام الذين قاموا بفعل ذلك، وارتاح كثيرا عندما علم أن سعيد لا يشك بأحد معين، ثم أخرج من جيبه ورقة بيضاء وطلب من سعيد أن يرد له طلب الانتساب القديم لكي يعيد كتابته على ورق أبيض قيصري (كما كان المختار يسمي الورق الأبيض المصقول) فالورق الذي كتب الطلب السابق عليه كان من الورق الأصفر ولا يليق بمقام الحزب، غير أن سعيد اعتذر منه وأخبره أنه سلم الطلب للرفاق لدراسته ثم طمأنه بأنهم على الأغلب سيقبلون به في الحزب وشرح له ظاهرة «الانسلاخ الطبقي» كما علقت في ذهنه بعد شرح الرفاق، أما المختار فظن أن سعيد يريد الاحتفاظ بالطلب لكي يبقى في مأمن من ناحية المختار وأزلامه وتصنع أنه يصغي إليه، ثم غادر المنزل خائبا.

باختصار فإن طلب انتساب المختار تحديدا هو من حمى سعيد من الوشايات، لأن المختار حظر على رجاله ان يذكروا سعيدا في اي تقرير يرفعونه للشعبة الثانية.

لكن الرياح لا تجري دائما كما تشتهي السفن كما سبق وقال الشاعر، فقد أخذ سعيد كل الاحتياطات لكي لا يقع في قبضة الأمن، فيما يسمى ضمن المصطلحات الحزبية بـ «اليقظة الثورية»، ولكنه ترك خاصرته مكشوفة للعدو، أما خاصرته الرخوة هذه فهي ابن عمه حسن.

كان حسن يعمل راعيا للغنم، أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وكان يحب سعيدا ويعتبره مفخرة العائلة ولذلك فقد كان ما يقوله سعيد له بمثابة بديهيات لا تحتاج إلى النقاش، ولكن بما أن حسن يمضي جميع أوقاته تقريبا في البرية، فقد كان يجهل جميع التغيرات التي حصلت، وهو لم يكن يهتم بها اصلا، ولذلك فقد كان لا يزال يعيش على أمجاد زيارة نائب البرلمان إلى بيت ابن عمه سعيد، وكان يعتقد أن الشيوعيين في السلطة، فنائب البرلمان هو أقصى سلطة سياسية يسمع بها حسن وبما أن النائب شيوعي فإن السلطة شيوعية، ولهذا فإنه في كل قرية يتوقف فيها كان يتحدث عن الحزب الشيوعي مكررا العبارات التي ألقاها سعيد على مسمعه وكان يطنب في المديح ظنا منه أنه يمتدح السلطة، فكان يقول مثلا (يا أخي هالحزب الشيوعي لا مثيل له) أو (قل لي ما هو الحزب الذي يعجبك أقول لك الحزب الشيوعي ولا حزب غيره، حزب العمال والفلاحين) أو (لا أحد يستطيع أن يقف في وجه الامبريالية غير الحزب الشيوعي) وعندما سأله أحدهم ماذا تعني الإمبريالية؟ صفن طويلا قبل أن يجيبه ثم قال منطلقا من

كره سعيد لها (شغله وسخه)، ولكن جوابه لم يقنع السائل فأردف (شويعني شغلة وسخة؟) مما أوقعه في مأزق وجعله يتهم سائله بالغباء لأنه لا يعرف الإمبريالية.

وعندما كان حسن ينزعج من ظاهرة ما، كان يعرب عن ذلك قائلا (لو كنت مسؤولا في الحزب الشيوعي لكنت أعدمته، هذا ليس ببني آدم هذا، لكن ما العمل.. لا يستطيع الحزب أن يعدم الجميع)، وبسبب كل ما يردده سعيد عن الحزب فسرعان ما وصل تقرير إلى الشعبة الثانية في جهاز الأمن يؤكد أن حسنا شيوعي.

قوبل التقرير في الشعبة الثانية بالسخرية، لأنهم يعرفون حسن جيدا فهو من يبيعهم الحليب واللحم والجبن وغير ذلك من المنتجات المرتبطة بالماشية، وكان بغبائه وسذاجته محط تندرهم الدائم، وأن تقول إن حسنا شيوعي فكأنك تقول إن الحمار يتكلم الانكليزية بطلاقة، ولكن الرقيب الذي قرأ التقرير فضل أن يطلع عليه الضابط المسؤول قبل أن يلقي به في سلة القمامة تحسبا لمسؤولية قد تقع عليه، وعندما سأله الضابط عن إمكانية صحة هذه المعلومات قال:

- أصدق أنهم صعدوا إلى القمر ولكنني لا أصدق أن حسنا يمكن أن يكون شيوعيا، هذا رأس طرش لا يفهم بمثل هذه الأمور. (وكان الصعود إلى القمر في تلك الفترة ضرب من المستحيل، حيث لم يكن هناك وجود لأبولو بعد)

بعد ذلك مزق الضابط التقرير وألقى به في سلة القمامة مرجعا سببه لثأر شخصي بين صاحبه وحسن.

ولكن التقارير التي وصلتهم بعد ذلك والتي تتهم حسنا بأنه شيوعي جعلتهم يفكرون بالأمر ويرسلون دورية لتقصي الحقيقة.

عندما توقفت سيارة الشرطة أمام منزل حسن كان الخوف هو الأمر الوحيد الذي لم يشعر به حسن، وإنما اختلجت في نفسه مشاعر أخرى هي مزيج من الفرح والاعتزاز وما شابه ذلك من الأحاسيس الإيجابية، فسيارة الحكومة تتوقف أمام منزله للمرة الأولى، وعندما خرج لاستقبال الدورية حدث نفسه قائلا: (تمسيح الجوخ جاب نتيجة) منوها إلى إطنابه في مديح الحزب الشيوعي، وتوقع في دخيلته أنه من غير المستبعد أن يزوره النائب في البرلمان قريبا كما زار ابن عمه سعيد من قبله.

أدرك عناصر الدورية من الاستقبال الحميم الذي قابلهم به حسن أن ليس للشيوعية رائحة في منزله، وتناسوا أمر التقارير وقرروا عدم إجراء تحقيق في الأمر بتاتا، غير أن أحدهم قال ساخرا وهو يعيد فنجان القهوة المرة الذي احتساه:

- شو يا حسن ؟ سمعنا أنك صرت شيوعيا؟!!!!

فرد حسن متحسرا حسرة من يحلم بنيل شرف لا يستحقه:

- أنا لا والله، لكن سعيد ابن عمي مسؤول كبير في الحزب الشيوعي، سعادة النائب كان يزوره شخصيا في بيته.

ومن أجل منفعة سعيد اردف حسن:

- قيادة الحزب تشاوره في كل صغيرة وكبيرة، كل الاجتماعات تجري في بيته ولا يعصى عليه سؤال، يمكنه الإجابة على كل شيء، رجل مطلع ويفهم.

وأطنب حسن في إطراء سعيد وكأنما ما يتفوه به عن سعيد سيسهم في تعيينه محافظا أو وزيرا، وكان هذا الإطناب بطبيعة الحال كافيا لاعتقال حسن وسعيد معا، وما هي إلا ساعة من الزمن حتى كان الاثنان يتعرضان للتحقيق في الشعبة الثانية.

عندما سأله المحقق إن كان شيوعيا غص سعيد برشفة القهوة التي كان قد رشفها من الفنجان الذي قدموه له في الشعبة الثانية، حيث دخلت القهوة في شعبته الهوائية وسعل سعالا شديدا واحمرت عيناه ولم يكن قادرا على الإجابة مما دفع ابن عمه حسن للإجابة مؤكدا عضوية سعيد في الحزب مثبتا ذلك بالزيارة التي قام بها نائب البرلمان لمنزله قبل عام، مما اضطر سعيد كبت سعاله وتمالك نفسه لينفي كل ما قاله حسن ثم يتابع سعاله الحاد، غير أن حسن ظن الدافع لهذا الإنكار تواضع سعيد الذي يضيع كل الفرص بسببه وأخذ على عاتقه وضع ابن عمه سعيد في مكانه الطبيعي وأكد من جديد أنه شيوعي، ولم تنفع جميع تأكيدات سعيد بعد ذلك في أنه غير شيوعي.

دب الهلع في القرية بعد اعتقال سعيد وحسن، وصار كل من قال لهما مرحبا أو زار أحدهما يحسب ألف حساب وحساب، أما في بيت حسن فقد تجمع الأقارب يواسون بعضهم بعضا وينتظرون خبرا مطمئنا عن مصير الشخصين المعتقلين، وفي المساء عاد حسن لوحده فأخذ الجميع يسألونه عن سعيد الذي لم يعد فأجاب بقرف:

- سعيد ابن عمي حمار.

استغرب الجميع ذلك وسأله أحدهم بلهفة :

- ما الذي جرى؟

فكرر حسن نفس المقولة بطريقة أخرى باستياء وقرف أيضا:

- كل شئ كنت أتوقعه إلا هذا الأمر، كنت أظنه يفهم ولكن تبين أنه حمار.

- ما الذي حصل؟

كرر أحدهم متلهفا لمعرفة أخبار سعيد التي اتخذت طابع التشويق بفعل لهجة حسن الذي عاد وأكد:

- ما كنت أتوقع أبدا أنه حمار لهذه الدرجة.

قفز أحدهم وأمسك بخناق حسن وقد فقد صبره :

- قل ما الذي حصل قبل أن اخنقك واقضي على مستقبلك، العمى.

أبعد حسن يدي الشخص بدون اكتراث :

- الآن عندما أقول لك ما الذي حدث، ستقضي على مستقبل سعيد الحمار، وليس على مستقبلي أنا، هذا اذا بقي له مستقبل فقد سمعت صراخه من الداخل كما لو انهم يقومون بذبحه.

- يا أخي فهمنا، يكفي، قل ما الذي حصل وخلصنا.

- الذي حصل، أن الجماعة أخذونا، وبكل احترام ادخلونا لعند رئيس الشعبة، وضيفونا قهوة ومن أفضل ما يكون، نقيب يا جماعة نقيب سقانا قهوة، نقيب مش عريف ولا عسكري.

- المهم، المهم.

استعجله أحدهم فأردف:

- رئيس الشعبة سأل سعيد أنت شيوعي؟ سعيد قال لا، يا بني آدم أتخجل من ذلك، قالوا له وصلتنا معلومات أنك شيوعي فأنكر وقال إن الذي أوصل هذه المعلومات كذاب فلم أتحمل نفسي وقلت له أنت الكذاب كل أهل البلد يعرفون أنك شيوعي، لماذا تخجل؟

- المهم، المهم .

قال أحدهم مستعجلا إياه فقال:

- المهم سعيد الحمار وضع رأسه بالحائط ولم يعترف، فأعطوا لكل واحد منا ورقة كتب عليها شئ ما وقالوا وقعوا، أنا أمي لا أقرأ ولا أكتب، بصمت، سعيد الحمار رفض التوقيع، وقع يا بني آدم (شو توقيع وزير الدفاع؟!!!!).

- المهم، المهم.

كرر أحدهم مستعجلا.

- المهم - قال حسن متنهدا - يجب أن نبحث عن شخص يدخلنا إلى الحزب الشيوعي، فكل شخص ينكر أنه شيوعي يضعونه في السجن، كما حصل مع سعيد، الحمار.

ثم أقفل حديثه(لأ خيو منصير مو شيوعيين، قرود منصير، المهم ماحدا يقرب صوبنا).

فروج بروستد

في كل سحب الى العسكرية يتم طلب عدة أشخاص من ام الطنافس للالتحاق بخدمة العلم التي يسميها المواطنون هنا (الإجباري) وفي هذا السحب تم طلب شخصين من حملة البكالوريا هما عاطف وجميل، اللذان ركبا الباص من ام الطنافس الى دمشق ومنها الى حلب حيث التحقا بمركز التجمع المسمى «ثكنة هنانو» فحلقوا لهما على الصفر وسحبو منهما بطاقتي هويتيهما المدنيتين واعطوا كلا منهما قصاصة قالوا إنها هوية مؤقتة، وطلبوا منهما المراجعة بعد أسبوع لمعرفة القطعتين العسكريتين اللتين سيتم فرزهما إليهما، وهكذا فقد كانا بعد منتصف ليل اليوم نفسه قد عادا كل إلى منزله في أم الطنافس.

صباح اليوم التالي ذهبا إلى عادل الحلاق لكي يسوي لهما شعرهما بعد أن قام حلاق مركز التجمع بجزه بطريقة يمكن القول إن جز صوف الغنم أكثر أناقة منها، وبعد أن قام عادل الحلاق بقص شعرهما على الصفر راويا لهما للمرة الالف كيف سقطت دبابته عن الجسر في وادي الرقاد أثناء الهجوم الذي كانت تقوم به فصيلته في حرب تشرين، وأنه علق في الدبابة مع بقية افراد

الطاقم ولم يتمكنوا من الانسحاب مع بقية افراد الكتيبة عندما قام العدو بهجوم معاكس، الأمر الذي جعل مساعد الذاتية في كتيبتهم يرفع برقية باستشهادهم، وكيف تلقى أهله الخبر، وكيف عاد هو من الجبهة وجنازته قائمة، وهنا كانت تنهمر دمعة من عين عادل وهو يصف كيف كانت امه وأخواته يبكينه، ويتوقف عن الحلاقة لثوان لكي يمسح دمعته، وبطبيعة الحال فإن أحدا لم يكن يتأثر برواية عادل الحلاق هذه، لأن الجميع كانوا يعرفون أن عادل لم يؤد الخدمة العسكرية، وأن القصة حدثت مع سلمان جبر من إحدى القرى القريبة.

بعد الحلاقة والاستحمام اجتمعا عند صديقهما الثالث سليم، المتخلف عن أداء الخدمة فوجدا هناك أخاه كمال الذي يدرس في جامعة حلب والذي قدم من هناك للتو، وعتب عليهما كثيرا لأنهما لم يقوما بزيارته فأوضحا له أنهما لا يعرفان العنوان، فتناول ورقة وقلما وأخذ يرسم لهما الخريطة التي توصلهما إليه، معلّما الطريق من باب الكراجات حتى باب بيته، ولكي لا يفقدا الطريق كان يضع نقاط العلام التي سيشاهدانها في الطريق عند كل مفرق، ومن بين نقاط العلام هذه كان محل فروج بروستد، الذي لم يكمل كمال بعده الشرح لأن عاطف قاطعه فيما يشبه الصرخة:

- فروح بروستد؟

- نعم، فروج بروستد.

قال كمال فتناول عاطف الورقة من يده ومزقها إربا وقال له:

- بلا ما توجعلنا راسنا بالشرح، عرفت المكان، ارسم لنا الخريطة من عند فروج بروستد.

وعندما سأل جميل عاطفا إن كان واثقا من أنه يعرف، أكد له أنهما مرا من المكان.

وهكذا رسم كمال الخريطة انطلاقا من محل فروج البروستد، وبعد شهر وقبل أن يتوجها إلى مركز التجمع في حلب ذهب عاطف إلى أم كمال وابلغها بأنهما سيزوران كمال وسيبيتان عنده، فإن كانت تريد إرسال شيء له فهما جاهزان، ولم تكذب أم كمال خبرا، فقامت بتحميلهما كل قطرميزات المكدوس والزيتون واللبنة التي رفض كمال حملها عندما غادر إلى حلب، كما لفت ورق العريش الذي كان يعشقه وطبخت له محاشي الكوسا والباذنجان التي كان يعشقها ايضا، علما أن كمال كان يعشق كل المأكولات، ثم وضعت اليبرق والمحاشي في دلو، وخبزت له على الصاج ما يكفيه لشهر ولم تنس فطائر اللبنة التي كان يعشقها أيضا، وهكذا وبفضل نخوة عاطف توجها إلى حلب ليس كعسكريين، بل كبعيرين محملين مزملين.

وبطبيعة الحال فقد كان من غير الممكن أن يذهبا بهذه الحمولة إلى مركز التجمع، ولذلك فقد قررا الذهاب إلى كمال يسهران ويبيتان عنده وفي صباح اليوم التالي يذهبان إلى مركز التجمع

(خفافا نظافا)، هذا ما اقترحه جميل على عاطف الذي كان يحمل كرتونة على كتفه وكان واثقا أنه سيوافق، لأنه لا يوجد خيار ثالث، ولكن عاطف قال بشكل غير متوقع:

- خيو.. ما رأيك أن نذهب إلى فندق.

- فندق؟!!! يارجل إن سمع كمال اننا ذهبنا إلى فندق سيخاصمنا مدى الحياة.

قال جميل مستغربا كلامه فرد عاطف بما يشبه اللغز:

- أليس المطلوب أن نجد كمالِ أولا؟

- لم افهم.

قال جميل محتارا فقام عاطف بتوجيه نقد لاذع لأهل حلب:

- يا أخي هؤلاء الحلبية لا تفهمهم ولا تعرف كيف يفكرون.

ازداد اللغز شراسة مع كلام عاطف الجديد، وثار في جميل فضول لمعرفة ما الذي يقصده فسأله:

- ما هو الموضوع يا عاطف؟

فقال:

- منذ أن دخل الباص إلى حلب وأنا أنظر من النافذة.. شاهدت أكثر من عشرين محلا يحملون نفس الاسم.

- يا أخي نحن مالنا وللحلبية، فليسمو محلاتهم كما يريدون،

أخرج من جيبك الخريطة ودعنا نبحث عن كمال.

وهنا صمت عاطف وبدا على ملامح وجهه بعض علامات الشعور بالذنب، ثم أنزل كرتونة القطرميزات عن كتفه ووضعها على الأرض وقال:

- معقول يا زلمي، بلد المتنبي اضرب واطرح لا يعثرون على اسماء للمحلات؟ كيفما أدرت وجهك، فروج بروستد، فروج بروستد..

هكذا إذن، تبين ان عاطف لم يسمع في حياته بما يسمى فروج البروستد الذي كان موجودا في المدن الكبيرة فقط آنذاك، والمحل الذي كان يتحدث عنه عندما كانا مع كمال، شاهده قرب مركز التجمع، ولذلك فهو يقف عاجزا لا يعرف ما الذي يفعله الآن.

تولدت لدى جميل رغبة في صفع عاطف على كلا وجنتيه معا ثم على رقبته وان يختم بركلة على قفاه، ومن غير المعروف إن كان سيروي غليله بعد ذلك أم لا، ولكنه في الوقت عينه لم يتمالك نفسه عن الضحك، حتى في الفندق عندما أعرب عاطف الذي كان يلتهم ببرق ومحاشي كمال، عن تذمره من سخرية جميل وطلب منه كصديق وابن صف وابن دورة عدم رواية القصة لأحد.

قدر ولطف

كانت هدى تعرف تماما أن زوجها سيلقي باللوم عليها حين يعلم أن ابنتهما رشا تأخرت في العودة إلى البيت من المدرسة الإعدادية، وربما كانت عبارة (يلقي باللوم) لا تعبر عما سيحدث، فهو سيوجه لها اتهاما بسوء تربيتها لرشا، هذا في بداية الأمر، أما إذا حدث مع رشا ما يعتبر من غير المرغوب حدوثه للفتاة، فمن غير المستبعد أن يرمي عليها زوجها الطلاق ويطلب منها أن تضب أغراضها وتذهب إلى بيت اهلها، ولكن مع ذلك فهي مضطرة لأن تخبره إن رشا التي كان من المفترض أن تعود من المدرسة قبل ساعة ونصف، لم تعد بعد، فكلما بكرت في إخباره كلما كانت ردة فعله أقل حدة.

- ماذا؟

قال الزوج وقد كادت عيناه تخرج من محجريهما، ثم اردف وقد لوى عنقه:

- كيف؟

- هكذا.. كما سمعت.

قالت هدى فاركة كفا بكف.

ربما شعر الزوج بدوار او بثقل في الراس منع غضبه من الخروج، ولكن نارا اشتعلت تحت الرماد، فقد بدأت الصور القبيحة التي تصور له رشا في مناظر تقشعر لها الأبدان، بالتوارد إلى مخيلته، وراودته أمنية لا يمكن لأب أن يتمناها لفلذة كبده، حيث تمنى لو ان رشا لفظت نفسها الأخير بعد أن تلقت نفسها الأول عندما خرجت من رحم امها، ولكنه مع ذلك تحامل على نفسه ووضع احتمالات أخرى، ولو بنسبة واحد بالمئة، وذهب للسؤال عنها عند صديقاتها في المدرسة.

جميع صديقاتها أكدن أنها غادرت المدرسة وتوجهت إلى البيت، (ولكنها لم تصل، فإلى اين ذهبت إذا؟) هذا هو السؤال الأهم الآن الذي كان يدور في رأس والد رشا.

اجتمعت العائلة بدءا من الجد الذي بصق في وجه والدها لأنه لم يحسن تربيتها وسمح لها بالذهاب إلى المدرسة مرورا بالأعمام الذين بدورهم وبخوا شقيقهم العاق لأنه سمح لهذه المنحطة رشا بالذهاب إلى المدرسة التي لا تؤدي إلا لمثل هذه المصائب، خمن كل من يستطيع التخمين عن السبب الذي منع رشا من العودة، فتساءل أحد الأعمام إن كان أبوها أو أمها قد أزعجاها مما جعلها تفضل الهرب من البيت؟ ولكن أمها أكدت أنها خرجت في الصباح بمزاج عال مما دفع إحدى عمات رشا إلى استنتاج غريب:

- ربما كان مزاجها عال لأنها كانت تعرف أنها ستهرب من البيت؟

وعندما تساءل أكثر من شخص من الحاضرين عن السبب الذي يدفعها للهرب وإلى اين؟ تذكرت عمة ثانية أن أمين ابن سالم سليقة تقدم لخطبتها في الصيف الماضي وتم رفض طلبه، ربما تكون قد هربت معه.

- ولكنها هي التي رفضته، ونحن لبينا رغبتها فعلى أي اساس تهرب معه.

- ربما يكون أمين قد قام باختطافها عنوة.

وهنا انتفض الأب ووقف واشهر مسدسه المخفي تحت ثيابه وخرطشه وصاح:

- إذا كان لأمين أدنى علاقة باختفاء رشا فلن يبقى احد من آل سليقة على قيد الحياة.

نهره الجد وطلب منه التريث حتى معرفة الحقيقة ثم التفوه بمثل هذه الكلمات، ثم شكل الجد وفدا من الأعمام والأخوال لزيارة بيت سالم سليقة ومحاولة استشفاف الحقيقة.

وقد كانت الحقيقة ناصعة منذ الدقيقة الأولى التي دخلوا فيها منزل سالم، فقد تبين أن ابنه امين في الولايات المتحدة منذ أكثر من سنة، وقد ارتاحوا لهذا الأمر فهم ليسوا راغبين بإثارة عداوة بينهم وبين آل سليقة، ولكن الصدمة الكبرى كانت عندما سألهم سالم إن كانوا قد وجدوا رشا أو عرفوا إلى اين هربت، مما دفعهم لخلع اغطية رؤوسهم او ما يسمى في عرف أم الطنافس بـ «تنكيس

العقال» فبعد أن انتشر خبر فضيحتهم لم يعد هناك مجال لكي يسيروا بين الناس برأس مرفوع قبل أن يسيل دم تلك الكلبة التي اسمها رشا في إحدى البواليع.

الجد وبقية الذين ظلوا في البيت نكسو العقل أيضا عندما علموا ان فضيحتهم أصبحت على كل لسان، ودب في البيت حزن واكتئاب وساد صمت مر، وكان الجميع في ما يشبه الجوع لقتل تلك الفاجرة التي جلبت لهم العار.

وبما أن الجلوس في المكان لا يجلب نتيجة فقد نهض الأب وعدد من الأعمام للبحث ومحاولة استقصاء أخبارها بعد أن شاع الخبر ولم يعد هناك ما يخشونه.

ذهب بعضهم إلى صديقاتها في محاولة منهم لمعرفة اسرار رشا عن طريقهن، فلعل راس الخيط الذي سيقودهم إليها في أحد هذه الأسرار، غير أن البنات جميعهن أكدن عدم وجود أي اسرار لدى رشا.

بعضهم الآخر ذهب لسؤال أصحاب البيوت المنتشرة حول الطريق المؤدي من المدرسة إلى البيت لعل أحدهم رآها، فتبين أن معظم السكان لم ينتبهوا لها، ما عدا امرأة كانت تنشر الغسيل قالت لهم إنها شاهدت رشا تختفي خلف المنعطف، ولم ترها بعد ذلك، وقد كان هذا أمرا طبيعيا، فهذا طريقها إلى البيت، فعل الجميع كل ما يستطيعون فعله ولكنهم لم يصلوا إلى راس الخيط، فعادوا إلى منزل رشا حيث يجتمع افراد العائلة، ولكن أحد الأعمام لم يعد،

ولم يخبر الباقين إلى اين ذهب مما جعل الجد يوجه له اللوم لأن هذا ليس وقت هذه التصرفات.

بعد ما يقارب الساعة من عودة الجميع اتصل العم المفقود وطلب منهم أن يعيدوا العقل إلى رؤوسهم، فكل التخمينات التي كانوا يتكهنون بها ليست في محلها ورشا شريفة.

سأله الجد

- كيف عرفت؟ أخبرنا ما الذي حصل

- الذي حصل أن رشا بعد أن تجاوزت المنعطف دهستها سيارة شاحنة ولذلك لم تصل إلى البيت.

قال عمها ذلك ودموع الفرح تكاد تنهمر من عينيه وكذلك فرح الجد وطلب منه أن يعطي الهاتف لرشا لكي يكلمها ويطمئن عنها محاولا الالتفاف على ضميره الذي أخذ يؤنبه لأنه ظن بها الظنون، ولكن العم أوضح له:

- رشا لا تستطيع أن تتكلم يا أبي.. أنا أتكلم معك من البراد.

صدم الجد بعض الشيء وردد بصوتى خافت:

- رحمة الله عليها.

ثم وضع العقال على رأسه وطلب من الآخرين أن يفعلوا مثله، وبعد ذلك قبل الرجال جميعا شوارب بعضهم البعض وتعانقت

النسوة وأطلق بعضهن الزغاريد، ثم خرج كل من معه سلاح إلى باحة المنزل وأطلق كل ما في مخزن مسدسه من طلقات في الهواء في إعلان منهم إلى باقي سكان القرية أن رشا ليست كما كانوا يعتقدون.

وبعد ذلك توجه الجميع والفرح يملأ قلوبهم ويرتسم على ملامح وجوههم، إلى المستشفى لاستلام الجثة وإتمام خطوات الجنازة، وكانوا في الطريق يتلقون التهاني من سكان القرية لأن الأمور انتهت على خير، ثم شيعت رشا إلى مثواها الأخير كعروس.

كلسون الخام الألماني

عبود مهنا سلطان يعتبر من الناس الميسورين بمعايير القرية، ولذلك فعندما شاهد على حبل الغسيل، كلسون الخام الألماني الذي أصبح ضيقا عليه بعض الشيء، فكر بالتصدق به على نجم القاضي، أما نجم القاضي ورغم أنه محتاج ويستحق الصدقة فعلا، فإن شيئا وحيدا فقط كان لا يحتاج إليه، هو الكلاسين، فقد كان عنده وفرة منها، لأن كل أكياس الطحين كانت تتحول علي يدي زوجته إلى كلاسين، ولكنه خجلا قبل الصدقة التي جاء بها عبود مهنا سلطان في كيس لفه وأعاده إلى جيبه بعد أن اخرج منه الكلسون وقدمه لنجم، ونوه له بحركة تدل على قيمة الهدية:

- خام ألماني، حتى لو قمت بحفه بالحجر فلن يهترء.
- كثر الله خيرك.

أجابه نجم دون اكتراث ووضع الكلسون جانبا، وهذه اللحظة بالذات كانت بداية لمأساة نجم التي ستسجل في تاريخ القرية، ففي اليوم التالي تحديدا شاهد عبود مهنا سلطان نجم القاضي في الساحة وقبل أن يقول له صباح الخير بادره على مسمع الجميع سائلا:

- كيف الكلسون.. ارجو الا يكون ضيقا؟

- لا.. شكرا لك.. كل شيء على ما يرام.

أجاب نجم القاضي مزدردا لعابه إحراجا أمام من لفت انتباههم سؤال عبود، وتنفس الصعداء عندما عاد كل إلى أشغاله، ولكن عبود عاجله بالسؤال الثاني:

- هل دكة الكلسون رخوة.. أم لا زالت متينة؟ إذا كنت تشعر بها رخوة فعندي ذراع ونصف من المطاط أعطيك اياه تدكك به الكلسون.

- لا الحمدلله، ليست رخوة.. متينة.. متينة جدا

وازدرد لعابة إحراجا مرة أخرى بعد أن ازداد عدد المهتمين، عندما وصل الحديث إلى دكة الكلسون.

- ممتاز .. ممتاز – قال عبود ثم تابع – لم أنم طوال الليل بسبب التفكير، خشيت أن تكون الدكة قد ارتخت فقلت لنفسي سيعتب علينا نجم ويقول .. آها تحسن علينا عبود بكلسون دكته رخوة.

شعر نجم وكأنه في دوامة من الرمال المتحركة، فتمنى أن تبلعه وتنهي معاناته، أو أن تهب عاصفة وتكنس وجه الأرض من آخر حبة رمل، وأكتفى بالجواب مجاملة:

- كثر الله خيرك.. لم تقصر أبدا.

- ما الذي تقوله يا رجل لم اقم بأكثر مما يمليه الواجب.. إنه مجرد كلسون، من يسمعك يظن أن أهديتك مرسيدس.

لم يرد نجم راجيا أن يقطع حبل الحديث بصمته، وكان مصيبا فيما فعل، فقد صافحه عبود مهنا سلطان وتابع طريقه.

عاد نجم القاضي إلى بيته معكر المزاج واستمر معه ذلك حتى غفا ليلا بعد صراع طويل مع الأرق، حيث راودته أحلام وردية جعلته ينسى عبود مهنا سلطان وكلسونه الخام الألماني، إلا أن سيرة الكلسون الخام الألماني لم تقفل هنا، ففي اليوم التالي عندما صادفه عبود في الساحة صاح به وهو يحث الخطى نحوه:

- طمئني نجم.. كيف الكلسون؟

- الكلسون بالف خير والحمد لله.

أجاب نجم ممتعضا بعض الشيء، ولكن عبود لم يلحظ ذلك في نبرته، بل شاهد فيها آيات الشكر على هذا الكلسون الذي اعتقد انه الحدث الأهم في حياة نجم، ومد يده إلى جيب الجاكيت وأخرج من هناك شيئا ما، مده إلى نجم قائلا:

- امسك، لقد أحضرت لك «المغيطة» من أجل دكة الكلسون خشية أن ترتخي أو تنقطع وأنا مسافر.

وضع نجم المطاطة في جيبه ولم يشكره حتى، خشية أن يطور الحديث، خاصة وأنه كان يشعر أن الجميع يشاهدون كلسونه وهو يتحدث مع عبود، غير أن عبود فاجأه بسؤال لم يكن في الحسبان:

- هل تعرف كيف تدكك المطاطة في دكة الكلسون أم اشرح لك؟

تلوى نجم وتمنى لو كان في يده سلاحا ناريا ما لكي يفرغ كل طلقاته في قلب عبود، ولكنه بالطبع أبقى على هذه الأمنية حبيسة رأسه وأجاب:

- يا رجل.. تسأل وكأنني سأخترع قنبلة ذرية، إنها مجرد مطاطة.

- هه.. قنبلة ذرية.. تسخر؟.. الألمان كل صناعاتهم معقدة ولها طريقة خاصة للتعامل معها، حتى الكلاسين، يا سيدي هل تعلم أن تدكيك كلسون الماني أصعب من اختراع قنبلة ذرية يابانية.

ثم نظر إلى حزام بنطال نجم وقال له:

- انزل البنطال.

وهنا لم يجد نجم بدا من التذمر، وقال:

- لا يوجد مشكلة يا أخي.. إذا قطعت دكة الكلسون أو ارتخت ارفع الكلسون، لماذا خلق الله للإنسان يدان؟.. لكي يرفع كلسونه إذا ارتخت الدكة.

لاحظ عبود الخجل في ملامح نجم فسخر منه:

- احمرَّ وازرقَّ واخضرَّ لأننا قلنا له أنزل البنطال.. ما بك مثل النساء، قلنا لك أنزل البنطال ولم نقل لك اخلع، أنت رجل

يا أخي.. رجل، لا داعي للخجل لن تخرب الدنيا إذا وقعت عين أحدهم على دكة كلسونك.

لم يجد نجم بدا من تلبية طلب عبود، وندم لأنه اعترض في البداية، فقد ازداد عدد المراقبين ثلاثة أو اربعة اشخاص بسبب ذلك، فأنزل البنطال وسرعان ما أمسك عبود بالدكة وأخذ يشرح له:

- هنا يوجد فتحة، تعلق المطاطة بدبوس وتبدأ بتدكيكها حتى تخرج من الطرف المقابل فتربطها وانتهى الأمر.. ارفع البنطال.

رفع نجم البنطال فطلب منه عبود:

- انظر إلى الأعلى.

نظر نجم إلى الأعلى ظنا منه أن عبود يريده ان يرى شيئا هناك، ولكن عبود قال له بعد أن نظر إلى فوق:

- أنظر إلى الأسفل.

نظر نجم إلى الأسفل ظانا الظن نفسه ولكنه لم ير شيئا فألقى نظرة استفسار على عبود الذي كان ينتظر هذه النظرة فعاجله:

- هل أطبقت السماء على الأرض لأنك أنزلت البنطال؟ لم تطبق، لا تزال في الأعلى والأرض مكانها في الأسفل، والحياة مستمرة كما ترى.

في تلك الليلة لم يشاهد نجم أحلاما وردية، في تلك الليلة عاش كابوسا ثقيلا فيه الكثير من الكلاسين التي كانت تحاصره مكشرة

عن أنيابها، وأكثر ما بعث الرعب في نفسه بينها ذلك الكلسون الضخم الذي كان يحلق على ارتفاع منخفض ويصليه بصواريخ جو ارض، ولأن كل شيء ميسر في المنام فقد وجد نجم زوجته تمد له مدفعا مضادا للطائرات أخذه منها على عجل وسدد على كلسون (الإف 16) كما سماه لاحقا من باب الدعابة، ولكن المدفع كما في كل الكوابيس أصيب باستعصاء ولم يعمل، بينما أطلق الكلسون على نجم صاروخا لا يمكن القول إنه مزقه إلى أشلاء، فقد نثره نثرا وجعله يتطاير في الهواء على شكل رذاذ.

استيقظ نجم من الكابوس وتلمس جنبات جسده، وعندما أدرك انه حي يرزق مسح عرقه وشرب الماء ولم ينم بعد ذلك تلك الليلة.

في اليوم التالي، كما في الأيام التي سبقته شاهد عبود مهنا سلطان نجم القاصي في الساحة التي تصب فيها دروب القرية كلها، وكالعادة ايضا سأله:

- كيف الكلسون؟

- بألف خير وفي غاية الشوق إليك.

رد نجم وفي نفسه رغبة بتوجيه لكمة إلى اسنان عبود الأمامية بحيث يشاهد بعدها الدم يشخب من لثته نوافير غزيرة تتحول إلى بحيرة تبتلع عبود وكلسونه الخام الألماني معا، أما عبود الذي لاحظ تغيرا في نبرة نجم فقد ظن أن نجم يداعبه فتابع:

- هاهاها.. أنا لا اسألك عن الكلسون عبثا، فقد تذكرت ليل أمس انني لم أنبهك لكي لا تغسل الكلسون في غسالة، أغسله باليد، فهو يكش، وهذا هو العيب الوحيد فيه، مريح للجسم ناعم على الجلد، ولكنه يكش، كلاسين الخام الصناعة المحلية لا تكش، ولكنها بالمقابل خشنة كالجنفيص عندما تلبسها تشعر بمحاشمك عدم المؤاخذة وكأنها على قطعة برداخ.. ما العمل هكذا هي الدنيا، لكل شيء كما قال أبو العلاء، إذا ما تم نقصان.

- يا ابن الستين كلب، هل تظنني البس كلسونك الخام مرة وإلى الأبد؟ لقد غسلته عشرين مرة منذ أن ابتليت به.

هكذا كان نجم يتمنى أن يقول لعبود، ولكنه لم يقله بل قال له:

- الحمد لله ليس عندنا غسالة.

- ممتاز- قال عبود وتابع - ايضا اريد أن انبهك لعدم استعمال مساحيق الغسيل، لأن مساحيق الغسيل تتفاعل مع الخام ويبقى أثرها فيه مما قد يؤدي عدم المؤاخذة إلى حكة في المحاشم، وأنت تعرف كم يشعر المرء بحرج أن اضطر لحك محاشمه في الشارع او في جلسة ما، سيلاحظ الناس ذلك ويعيبونه عليه.

- زوجتي لا تعرف غير صابون زهر الزيتور.

قال نجم محاولا أن ينهي الموضوع.

- افضل شيء، الصابون افضل شيء.

ومد يده مصافحا نجم الذي تنفس الصعداء ظنا منه أن المصافحة هي نقطة النهاية للحديث، كما هي العادة، ولكن عبود أعاد يده فجأة إلى جيبه قبل أن يجري المصافحة، قائلا:

- لحظة، لحظة، جلبت لك الدبوس.

ثم مد له الدبوس واردف:

- هؤلاء الألمان أولاد كلب، دقيقون على الشعرة، حتى في دكك الكلاسين، يا رجل.. يخترعون الكلسون وكأنهم يخترعون ميغ سبعة عشر.. اجعل ذنب الدبوس إلى الأمام عندما تدكك المطاطة، ورأسه إلى الخلف، تحسبا فقد ينفتح فجأة ويصبح من الصعب دفعه.

- حاضر سيدي.

وجد نجم نفسه يقول لعبود الذي قال عدة كلمات أخرى لم يسمعها نجم، ثم انصرف.

ولم يتنفس نجم الصعداء في هذه المرة حتى شاهده يختفي خلف المنعطف.

لم يشاهد نجم كوابيسا تلك الليلة لأنه لم يغمض له جفن، ولكن رغبات كثيرة راودته كأحلام يقظة، فمرة دخل إلى الساحة ومعه رشاش دكتريوف وافرغ شريطه كاملا في جسد عبود مهنا سلطان، ومرة شاهد نفسه يعلق الكلسون على حبل الغسيل ويرميه بسهم من قوس النشاب ويصيبه في منطقة المحاشم تماما، ليسبب له أكبر قدر من الألم، فقد بدأ يشعر ان روحا شريرة تسكن كلسون الخام الألماني ذلك، وفي أحلام اخرى سكب على الكلسون بانزينا وأحرقه،

وفعل بالكلسون وبصاحبه الأساسي كل ما يمكن أن يفعله شخص حاقد ناقم بمن يرغب بالانتقام منه، غير أنه في اللحظات التي كان يثوب فيها إلى رشده، كان يفكر بما يتوجب عليه فعله لكي يتخلص من مأساة الكلسون، فلم يعثر على طريقة تخلصه من هذا، وأكتفى بالأمل أن يمل عبود مهنا سلطان يوما من السؤال عن الكلسون وبذلك تكون مشكلته قد حلت، ولكن ذلك لم يحصل، ففي كل يوم كان عبود إضافة لسؤاله عن الكلسون ومديحه للمنتج الألماني، يقدم له توجيهات جديدة فيما يخص التعامل مع الكلسون الخام الألماني.

وبما أن لكل وعاء طاقة على الاستيعاب فإنه لا بد لهذا الوعاء في نهاية المطاف من الانفجار، وهذا ما حدث مع نجم القاضي، ففي أحد الأيام وكانت الساحة مكتظة، وبعد اول سؤال من قبل عبود مهنا سلطان عن كلسون الخام، وجد نفسه بشكل آلي يخلع بنطاله ثم يخلع كلسون الخام ويناوله لعبود شاكرا اياه:

- اشكرك جزيل الشكر على كلسون الخام الألماني، ولكن خذه وخلصني منه لأنني لا اجيد التعامل مع الصناعة الألمانية.

ثم التفت إلى الجمع الذي أخذ يحدق بعضه في مؤخرته العارية فاغراه فاه، وبعضه الآخر في مقدمته العارية فاغرا فاه ايضا، وقال بصوت يتهيأ للسامع معه أن افعى تخرج من صدره:

- يا جماعة لا تؤاخذوني.. أقسم لكم.. أن يكون الشخص عاريا خير له من أن يستر عورته بكلسون عبود مهنا سلطان، حتى ولو كان «بوبلين» وليس خاما المانيا فقط.

كلمة أصدقاء الفقيد

لم يعد عادل يذكر عما كان يدور الحديث الذي كان يصغي إليه باهتمام عندما انحنى أبو فارس باتجاهه وهمس في أذنه :

- هل أنت بارع في مجال الخطابات؟

- لا أدري.. في حياتي لم ألق ولم أكتب خطبة.

عندها عدل أبو فارس سؤاله بشكل يحصل فيه على إجابة مرضيه:

- كيف لغتك العربية؟

- لا بأس.

أجاب عادل، وهذا ما كان يريد أبو فارس سماعه فنهض ودخل إلى غرفة أخرى ثم خرج منها وبيده مجلة عتيقة مدها إلى عادل بعد أن جلس قربه وقد فتحها بحيث حجب غلافها الورقة التي في داخلها عن بقية الساهرين ثم انحنى إلى عادل وهمس في أذنه مرة أخرى:

- أعطني رأيك بهذا الخطاب.

أمسك عادل بالمجلة وأخذ يقرأ:

(إنني لأشعر بالشمس تنكسف والقمر ينخسف والجو يرتجف والأرض تنجرف لهول الصدمة.. الصدمة التي باغتتنا كما يباغت الذئب قطيع الغنم فيقف لا حول له ولا قوة .. كيف لا وفي هذا اليوم يغفو غفوته الأخيرة صاحب القلب الكبير نظيف اليد والقلب واللسان، المكافح والكادح الذي تعب وربى شلة من خيرة شباب هذا الوطن من كد يمينه وعرق جبينه دون أن يدخل جيبه قرش حرام، الرجل الكريم والشهم أبو نزار سليم الشـ.....)

لم يكمل عادل قراءة الكنية وهب شاهقا كمن صعقه تيار كهربائي :

- أبو نزار مات؟

ولكن أبا فارس سرعان ما أمسك به من يده وأجلسه طالبا منه الصمت:

- هس.. اصمت.. اصمت لا تفضحني.

ثم طلب من الحاضرين الذين توقفوا عن الحديث ووجهوا نظرات متسائلة:

- أكملوا حديثكم ..أ كملوا حديثكم .. لم يحصل شيء.

إلا أن أحد الحاضرين أصر على معرفة الأمر:

- من الذي مات؟

فأجابه أبو فارس بضيق:

- لم يمت أحد.. لا تقلق

تابع الساهرون حديثهم بينما التفت أبو فارس إلى عادل الذي لا يزال تحت تأثير الصدمة وقال عاتبا:

- أكان يجب أن تقفز من مكانك.. كدت تفضحنا.

أما عادل فلم يكترث بعتاب أبي فارس وأعاد سؤاله هامسا:

- أبو نزار مات؟

- لم يمت .. لكنه يوشك أن يموت.. أولاده كانوا عند الطبيب وقال لهم أن أيامه معدودة... ابق هنا.. بعد أن ينصرف الضيوف نتحدث على راحتنا.

وبعد انصراف الضيوف سكب أبو فارس كأسين من النبيذ وأكمل عادل قراءة الخطاب، وعندما رشف أبو فارس أول رشفة من كأسه طلب من عادل:

- تكلم بصراحة.. لا تخجل أبدا.. أعرف أن لغتي العربية تحت الصفر مثل برد سيبريا، ولهذا أحضر الكلمة مسبقا، فأنا سأكلف بإلقائها لأنني صديقه الأقرب، ولا أريد أن أقلب العزاء إلى مهزلة.

وقد لبى له عادل طلبه فبدأ بإبداء ملاحظاته بكل صراحة:

- أولا عبارة الشمس تنكسف والقمر ينخسف.. إلى آخره.. تقال لو أن الميت رجل مهم.. وأبو نزار عدم المؤاخذة شخص عادي جدا.. يعني هناك مبالغة

- ضع تحتها خط.. عندما أقوم بتبييض الخطاب أحذفها.. ثانيا ماذا؟

- ثانيا مفردة شلة مفردة عامية تستخدم للتقليل من شأن مجموعة ما والحط من قدرها والأفضل ثلة بالثاء.

- ضع تحتها خط.. عندما أقوم بتبييض الخطاب أحذفها.. ثالثا ماذا؟

- ثالثا على حد علمي أبو نزار من مواليد 1926.. صحيح؟

- صحيح .. أنا وإياه من مواليد نفس السنة.

- لا داعي إذا لإقحام الثورة السورية.. فلا علاقة له بها..

- بيني وبينك هذه الجملة وضعها أبو طلال في الخطاب .. قلت له أبو نزار ولد بعد الثورة فقال لا أحد سينتبه.. ضع تحتها خط.. عندما أقوم بتبييض الخطاب أحذفها.. رابعا ماذا؟

- رابعا بالنسبة للوحدة السورية المصرية ما دخل أبو نزار بها.. من يقرأ ما كتبته يظنك تتحدث عن عبد الناصر

- هذه الجملة وضعها أبو وليد.. قلت له ما دخل أبو نزار بالوحدة فقال إن أبا نزار كان مؤيدا لها.

- لم يكن ضد الوحدة أحد.

- ضع تحتها خط.. عندما أقوم بتبييض الخطاب أحذفها.. خامسا؟

- خامسا بالنسبة للعلم .. عدم المؤاخذة .. مع احترامي لأبي نزار .. لكن الرجل غير حاصل على الابتدائية.. هنا كأنك تكتب عن لافوزيه

- من؟

- لافوزيه.. عالم فيزياء.

يتذمر:

- قلت لأبي ماجد لا داعي للكلام عن العلم فقال إن أبا نزار يحب العلم.. ضع تحتها خط.. عندما أقوم بتبييض الخطاب أحذفها.. سادسا ماذا؟

وكانت هذه أهم الملاحظات التي أبداها عادل فأيده أبو فارس ووعده بتعديل الخطاب، ثم ودعه إلى الباب بعد أن شربا زجاجة النبيذ وعاد لتنقيح الكلمة.

بقي أبو فارس حتى الساعة الخامسة صباحا يشطب ويعيد الكتابة لكي يتوصل إلى صيغة نهائية لكلمة أصدقاء الفقيد، فحذف (شلة) وكتب (ثلة) كما نصحه عادل، ثم حذف (ثلة) لأنها لم تعجبه فقد بدا له أنه يلثغ بالشين حين يذكرها، وكتب مكانها (كوكبة)، وفيما يتعلق بالثورة شطب الرقم 1925 وكتب مكانه 1945 على اعتبار أن أبا نزار كان في العشرين وقتها، وفيما يتعلق بالعلم فقد عاد وكتب: (وقد حمل راية العلم طول حياته وله يد طويلة) ثم شطب طويلة على أساس أن اليد الطويلة تستخدم للتعبير عن

اللصوصية، وكتب مكانها كلمة يسمعها دائما (حيث أن له باعا) ثم شطب باعا قبل أن يكمل الجملة، فهو لا يجد متعة في سماع هذه الكلمة وكتب بدلا عنها (حيث أن له فضلا كبيرا على العلم والمتعلمين..الخ)، وفي الساعة الخامسة قرأ الكلمة في صيغتها النهائية وضرب برأس قلمه على الورقة وكأنه يشك أحدا بدبوس قائلا:

- نقطة انتهى.

وفي الساعة السابعة والنصف كان يطرق باب عادل لأخذ رأيه بالصيغة النهائية للكلمة.

ومن جديد جاءت ملاحظات عادل بصراحة:

- (كوكبة) تستخدم للدلالة على مجموعة متميزة من الناس، وأولاد أبي نزار مع احترامي لهم ليسوا...

ولم يكمل عادل كلماته لأن المعنى واضح، ولكن أبو فارس تبرم من هذه الملاحظة:

- يا عزيزي .. ماذا سنخسر إن كتبنا عنهم كلاما جيدا، ألا يكفي أن الحياة جارت عليهم، فليسمعوا كلمة تبعث في نفسهم الارتياح، التاريخ لن ينزعج إذا قلنا أنهم كوكبة.

- كما تريد.

قال عادل وتابع قراءة الكلمة ثم تساءل:

- أي ثورة حصلت في عام 1945.

- لم يحصل أي ثورة في عام 1945

قال أبو فارس ثم تابع:

- لكن يجب أن نذكر مأثرة ما قام بها أبو نزار، لكي لا يخرج من التاريخ عاريا، ولو أن ثورة حصلت في عام 1945 كان أبو نزار سيشارك فيها بكل تأكيد.. أنا واثق من ذلك.

- وإذا سألك أحد عن هذه الثورة التي لم تحدث.. ماذا ستقول؟

- لن يسأل أحد.. أؤكد لك أن أحدا لا يعرف هل حصلت ثورة في ذلك العام أم لا.

- كما تريد.

قال عادل وتابع قراءة الكلمة، ثم توقف عند فضل أبي نزار على العلم:

- ألم تعدل الجملة حول موقف أبو نزار من العلم.

امتعض أبو فارس من هذا السؤال، فقد كان يأمل أن يمر عادل دون التوقف عندها، وأكد له أن أبا نزار كان من بين الذين ساهموا في بناء المدرسة في يوم عمل طوعي وبالتالي فإن فضله على العلم والمتعلمين أمر ملموس وليس مختلقا، ولم يجد عادل بدا من التوقف عن الكلام بصراحة والقول في نهاية المطاف:

- الخطبة ممتازة.

عندها طوى أبو فارس الورقة ودسها في جيب سترته الداخلي وبعد أن شرب الشاي شكر عادل ومضى.

وفي الطريق إلى بيته كان يتخيل نفسه يلقي الكلمة عند جثمان أبي نزار وكان يتخيل ردود أفعال الحاضرين ولم تعجبه تلك الابتسامة الصفراء التي كان يخفيها أبو صالح خلف قناع حزنه المزيف، وأدرك أن مبعث هذه السخرية هو ضعف الكلمة التي يلقيها، ولكي لا يدع مجالا لحدوث هذا فقد قرر أبو فارس أخذ رأي أبي صالح وقطع الطريق عليه، وعرج على بيته وطلب منه إبداء الملاحظات على ذلك وبصراحة، ولم يسأله أبو صالح عن ثورة 1945 فهو في التاريخ لا يعرف شيئا، ولكنه امتدح تلك الثورة ورجالها الشجعان، فامتعض أبو فارس وقال:

- أضف جملة واحدة على الأقل إلى الخطبة.. إنه صديقك كما هو صديقي.

وكان هدف أبي فارس توريط أبي صالح بالمساهمة في كتابة الخطبة لا أكثر، وأبو صالح بدوره لم يتهرب من مسؤوليته في المساهمة وأضاف على الهامش (ولم يبخل المرحوم بدمه، ولا أحد ينسى عندما هجم المرحوم على الدبابة الفرنسية رغم الرصاص الذي كان ينهمر عليه كالمطر وسد مدفعها بثيابه ولون تراب الوطن بدمه)، وعندما قرأ أبو فارس هذه الجملة لم يجد بدا من السؤال:

- متى حدث ذلك؟

- في ثورة 1945

أجاب أبو صالح بتلقائية وكأنه شارك في هذه الثورة ولازال يذكر أحداثها كما لو أنها جرت بالأمس.

قرع أبو فارس في ذلك اليوم أبواب كل من يمكن أن يسخر من كلمته أو يبدي عليها ملاحظة ما، فقد كان يريد لها أن تكون كلمة تاريخية، وعند المساء كانت الكلمة قد تضخمت من صفحتين إلى سبع صفحات بعد أن حشر كل شخص فيها ما يريده، وبعد أن أعاد أبو فارس كتابتها على ورق أبيض، ضرب على جبهته وأطلق صفرة عدم ارتياح، فقد تذكر هايل، لابد أنه سينزعج عندما يعلم أنه أخذ رأي الجميع ولم يأخذ رأيه، ولذلك فقد نهض وتوجه مسرعا باتجاه منزله .

أبدى هايل استعداده التام لذلك وأخذ الأمر على محمل الجد وهو الشهير بالتمحيص والتدقيق في كل خطوة يخطوها وكل كلمة يتفوه بها، وطلب من أبي فارس أن يبقي الخطبة عنده حتى الصباح لكي يتمعن فيها جيدا فاعترض أبو فارس:

- وإذا مات أبو نزار ليلا.. كيف سأتدرب عليها؟

فوافقه هايل وأعاد إليه الخطبة بعد ساعتين .

وفي فجر اليوم التالي استيقظ الجيران على الصراخ والعويل المنطلق من بيت أبي فارس وسرعان ما انتشر الخبر في القرية (أبو فارس أسلم الروح لباريها)، فاجتمع أصدقاءه بمن فيهم المرحوم المفترض أبو نزار، وتباحثوا للبت باسم الشخص الذي سيلقي كلمة أصدقاء الفقيد، ولم يكن هناك مرشحا أفضل من أبي نزار أقرب أصدقاء أبي فارس، ولكن أبو نزار اعترض بحجة أنه غير بارع في إلقاء الخطابات، وإذا فعل ذلك سيسخر الجميع منه وسيحول جنازة صديقه إلى مهزلة، وعند ذلك ارتفعت الأصوات:

- الكلمة جاهزة.. الكلمة جاهزة.

وتوجهت نظرات الجميع إلى المجلة التي كان يخفي أبو فارس الكلمة فيها، حيث كانت على حافة النافذة.

تناول عادل المجلة وشطب اسم أبي نزار مستبدلا إياه باسم أبي فارس في كل فقرات الكلمة.

عندما كان الموكب يشيع جثمان الفقيد إلى مثواه الأخير بعد أن ألقيت جميع الكلمات، كان أبو نزار شارد الذهن غارقا في التفكير بشيء ما، وعندما سأله هايل عما يشغله أجاب:

- أحاول أن أتذكر.. متى حدثت ثورة 1945.. المرحوم لم يذكر لي شيئا عنها.

أبو مزيد سليم

أو

(لايحن على العود غير قشره)

عملهم كان بسيطا للغاية حيث يقوم المتعهد أبو طلال بعقد صفقة بين البلدية التي تمده بالمعدات وبين حقول الارشاد الزراعي التي تستفيد من هذه (القاذورات) كسماد لحقولها الإرشادية، ولهذه الغاية يقوم أبو طلال بجمع طواقم من تلك الفئات التي يمكن أن نطلق عليها دود الأرض والتي لا تترفع عن أي عمل، واعتقد أنها هي مبتكرة المثل الشعبي القائل (اشتغل بالخاء لكي لا تحتاج الخاء)، وأبو مزيد سليم الذي يدعوه أبو طلال مع ثلة من اصدقائه للعمل في كل موسم، كان ينتمي تحديدا إلى هذه الفئات، ولكنه، ومع أنه لا يترفع هو وأصدقاؤه عن العمل في هذا الحضيض إلا أنه في كل مرة كان يوافق هو وأصدقاؤه على مضض، ولكي لا يتعرف عليهم أحد كانو يلفون رؤوسهم بشماخات تغطي كامل الوجه ولا تبقي سوى على كوة صغيرة للعينين توفر الرؤية، أما أبو مزيد فكان يمعن في التنكر فيغطي هذه الكوة بنظارة سوداء اشتراها من سوق الحميدية بليرتين ونصف.

وهكذا كانوا في النهار ينظفون الزرائب وفي المساء يسهرون في المضافات مع علية القوم ويخوضون أعمق النقاشات في أكثر المواضيع حساسية على صعيد السياسة الدولية وفي حال عدم وجود مخبرين كانوا يسمحون لأنفسهم بتوجيه انتقادات للحكومة أيضا، ولم يكن أحد يحدس أنهم هم أولئك الملثمين الذين يقومون بتنظيف الزرائب.

ولكن دوام الحال من المحال كما يقولون، فمرة وعندما كان أبو مزيد سليم يفرغ أكياس الروث التي يتلقاها من رفاقه العاملين داخل الزريبة، في مقطورة الجرار الذي كان يقف على الشارع القريب من الزريبة، مر صديقهم سعيد، وهو الصديق الوحيد الميسور والذي لم يكونوا يطلعوه على عملهم هذا، ولما شاهد أبا مزيد فوق الجرار تمكن رغم اللثام والنظارة السوداء، من التعرف عليه فندهه سائلا:

- أبو مزيد سليم؟

ولكن أبا مزيد لم يبد أي رد فعل، متصنعا أنه ليس الشخص المقصود، أما سعيد الذي ظن أن صديقه لم يسمع فقد كرر سؤاله:

- أبو مزيد سليم؟

ومرة أخرى تصنع أبو مزيد أنه ليس الشخص المقصود فما كان من سعيد إلا أن انصرف معتقدا أنه أخطأ فعلا، وما كان من أبي

مزيد الذي ارتاحت نفسه لانصراف سعيد إلا أن تنفس الصعداء، ولكن سعيدا الذي لم يصل إلى قناعة تامة بأن ذلك الذي يقف فوق الجرار ليس أبا مزيد، ولأن سعيدا ليس من تلك النوعية من البشر التي تستطيع النوم وفي راسها سؤالا يحيرها، فقد عاد بعد أن قطع خمسين مترا ووقف أسفل الجرار وسأل من جديد:

- أبو مزيد سليم؟

ومرة أخرى تصنع أبو مزيد أنه لا يسمع وتابع عمله دون أن يبدي أي ردة فعل، فما كان من سعيد إلا أن أمسك بطرف بنطاله من الأسفل وشده منبها إياه، وعندما التفت أبو مزيد باتجاه الأسفل سأله سعيد:

- أبو مزيد سليم ولا أنا غلطان؟

فما كان من أبي مزيد إلا أن خلع اللثام والنظارة السوداء ورماهما في الروث وقال غاضبا:

- أبو مزيد سليم يا أخي.. أبو مزيد سليم.. حنيت طي..ك الآن؟

وطبعا انفضح أبا مزيد سليم وفضح كل من معه، وصار الجميع بسبب فضول سعيد، يعرفون من هم أولئك الملثمين، وصار الناس في وجودهم يشمون رائحة في بعض الأحيان.

وبعد أن هدأت النفوس ونسي أبو مزيد حقده على سعيد، وجه له ذات مرة عندما كان يحتسي الشاي في ضيافته، ذلك السؤال الذي ظل يحيره لفترة طويلة:

- كيف تمكنت من معرفتي رغم أنني كنت ملثما وأضع على عيني نظارة سوداء وقتها؟

خجل سعيد أن يصارحه بأن الرقعة الصفراء التي كانت على مؤخرة بنطاله هي من كشفته له، واكتفى بالقول:

- لا يحن على العود غير قشره.

البرواظ

كانت الجدران في غرف منزل جوهر تكتظ بالإطارات التي يحتوي كل منها على صورة من مناسبة ما، تجمعه بمسؤولين من مستويات مختلفة، تصل إلى مستوى وزير أحيانا، وما كان يميز تلك الصور جميعا هو أن جوهر في جميعها يطل برأسه من خلف صف المسؤولين، وتحديدا في النقطة التي يقف فيها أرفع مسؤول بينهم، مرة تشاهده يطل بعينيه من خلف رأس المسؤول، ومرة تشاهد رأسه كاملا، ومرة تشاهده حتى كتفيه، ذلك كان يتعلق بالدرجة الأولى بطول ذلك المسؤول، وبارتفاع الأداة التي يتسنى لجوهر الوقوف عليها، ومن هنا يمكن أن نفهم احترام وحب جوهر للمسؤولين قصار القامة، أكثر من أولئك الذين كانوا يتمتعون بطولها، أما أعز صورة على قلبه، والتي كانت تتوسط صدر الجدار المقابل للباب في غرفة الضيوف، فكانت تلك الصورة التي تجمعه في عناق حميم مع المحافظ، أما الحقيقة فإن ذلك لم يكن عناقا على الإطلاق، ففي ذلك اليوم لم يجد جوهر ما يضعه تحت قدميه لكي يتمكن من الظهور في الصورة خلف المحافظ، سوى تنكة قديمة كان يستخدمها عمال البناء لنقل الأسمنت، ولكنها، ما إن صعد

إليها حتى تهاوت تحته وسقط فتلقفه المحافظ ووجه له أقذع الشتائم، ولكن من حسن حظ جوهر أن عدسة الكاميرا لا تلتقط الشتائم.

يقف جوهر اليوم أمام هذه الصور التي تباهى بها سنين طويلة، ويفكر ما الذي سيفعله بها، فبعد الصورة التي ستلتقط له في الأسبوع القادم ستصبح هذه الصور كلها بلا أدنى قيمة، لا تساوي قشرة بصلة، فقد دعي جوهر صباح اليوم إلى مركز الناحية وأبلغه أمين الفرقة الحزبية بأنه سيكون ضمن مجموعة مختارة من سكان قرى المنطقة، تشكل الوفد الذي سيكون ضمن اللقاء التاريخي المشهود، الذي ربما لن يتكرر في حياته مرتين، حيث سيزور الرئيس المنطقة وسيلتقي مع وفد من سكان القرى.

فرحة الرفيق جوهر لم تكن باللقاء المنتظر مع الرئيس بقدر ما كانت بالصورة التي سيتم التقاطها في نهاية اللقاء معه وهو يصافح الحضور مودعا، ومنذ أن ابلغ بخبر اختياره كواحد من النخبة المختارة لحضور هذا اللقاء التاريخي، لم تكف مخيلة جوهر عن العمل لا في اليقظة ولا في المنام، كان يفكر بما سيرتديه في اللقاء، وكيف سيصافح الرئيس، هل يبتسم معبرا عن فرحته؟ أم يحتفظ برزانته لمنح الصورة هيبة إضافية؟ أم يقف باستعداد؟ أم يؤدي التحية في سلوك رمزي معناه اننا كلنا جنودك؟ والكثير من الأشياء الأخرى، ولكن أكثر ما كان يؤرقه هو أن الصورة الموعودة ستفقد قيمتها بين مجموعة الصور الكثيرة التي تزين جدران بيته،

وربما لن ينتبه لها البعض إذا لم يقم هو بتنبيهه، وهذا ما لا يريد فعله، إنه يريد للضيف أن يرى صورته وهو يصافح الرئيس بمجرد تجاوزه لعتبة المنزل، من يكون المحافظ، وحتى وزير الري هذا المتعجرف الذي لعجرفته شعر جوهر بوطأته أكثر مما شعر بوطأة الجفاف، من يكون هذا الإمعة مقارنة مع الرئيس؟ إنهم جميعا لا شيء مقارنة به، صفر على الشمال، هكذا كان يفكر جوهر وكأنما يبحث عن المبررات لكي يفعل ما قرر فعله، وبدون تردد نهض جوهر في شبه انتفاضة من مكانه وبدأ بنزع الإطارات عن المسامير، وإلقاءها على «الدشك» (التسمية التي كان يطلقها جوهر على الأريكة العتيقة المتبقية من عهد الراصورات)، ولم يكن يخفي ازدراءه لهذه الشخصيات، معبرا عن ذلك الازدراء بزم شفتيه وتقليص ملامح وجهه وكأنه يشم رائحة كريهة، غير أنه خص شخصيتين منهما بتعليق إضافه إلى ملامح الاشمئزاز، الشخصية الأولى هي المحافظ الذي خاطبه جوهر وهو يرمي صورته على الدشك قائلا:

- إمعة.

رغم أنه لا يعرف معنى هذه الكلمة، غير أنها على ما يبدو كانت تعجبه كشتيمة، ويأتي حقده على المحافظ كما ذكرنا بسبب الشتائم التي وجهها له في الصورة التي كان يحتضنه فيها، أما حقده على وزير الري فلم نتبين سببه، حيث شيع جوهر صورته ايضا قائلا:

- زبال في البلدية كثير عليك.. لو أعرف أي حمار عينك وزيرا؟

أما بقية الصور فرماها مكتفيا بملامح الاشمئزاز دون ان يضيف أي تعليقات.

الصورة يجب أن تكون بمفردها على الحائط، لا داعي لأي تشويش كان، ولكنه بعد أن نزع الصور وجلس على الفراش، فكرا قليلا وبدت ملامح وجهه جدية كما لم تبد كذلك من قبل، ثم نهض قائلا:

- لا تقل فولا قبل أن يصبح في العدول.

أعاد الصور إلى مكانها مقررا تركها حتى تصبح تلك الصورة الموعودة في حوزته، وقد فعل ذلك لأسباب إضافية أخرى، فهو لا يحب الجدران العارية، وفي نفس الوقت لا يحب أن يرى أشياء تافهة معلقة عليها، وهو إن جرد هذه الحيطان من ساكنيها الذين في الصور سيجد المسامير التي كانت معلقة عليها، في غضون ساعة وربما اقل، وقد علقت فوقها المناشف وقطع الثياب المختلفة، فقرر ألا يترك لزوجته مثل هذه الفرصة الذهبية، وجلس يملأ الاستمارة التي طلب منه أبو طارق أمين الفرقة أن يملأها لكي ترفع للجهات المسؤولة من أجل دراسة المرشحين لتلك المقابلة، وبعد أن انتهى من الاستمارة سحب درج الطاولة وأخرج من هناك دستة من الصور الشخصية التي فاضت عن حاجة الوثائق التي

التقطها من أجلها سابقا، ولأنه وجد صعوبة في انتقاء الصورتين اللتين سيرفقهما بتلك الاستمارة، فقد اضطر لطلب المشورة من زوجته التي أشارت إلى أول صورتين وقعتا تحت سبابتها، ولكن الصورتين لم تعجبانه، كما أنه لم يعثر على صورتين أخريين فقرر أن يمر صباحا إلى محل التصوير ويلتقط صورة جديدة تليق بالمناسبة وفي الوقت نفسه يسأل أبا انيس المصور إلى أي حجم يمكن تكبير الصورة، فهو يريدها أن تملأ الجدار، إن كان ذلك ممكنا.

في اليوم التالي عندما سلم جوهر الاستمارة والصورتين للرفيق أبو طارق، كان يغمره الفرح لأن أبو أنيس المصور أبلغه بأن الصورة يمكن تكبيرها إلى الحجم الذي يريده، ولكي تتم الفرحة فقد سأل جوهر أبا طارق من باب التحسب، هل يسمح له بأن يتحدث عن هذا اللقاء مع الرفاق (المناظلين) وبقية الجماهير أم أنه يفضل الصمت لدواعي أمنية؟ فأجابه أبو طارق، بأنه لا يوجد مشكلة في الموضوع وكما في كل مرة نبهه أن ينطق الضاد بشكل صحيح منبها إياه إلى أن الضاد هو الحرف الذي يميز العربية، فأعرب جوهر عن علمه بالموضوع وقال:

- أعرف.. أعرف.. لسان (الظاد) يجمعنا بفسان وعدنان ..مفهوم.

بعد أن حصل جوهر على الضوء الأخضر، استقل الحافلة المتوجهة إلى قريته فور خروجه من عند أبي طارق، وفي الطريق الذي لا يستغرق أكثر من ربع ساعة، وجد ما يكفي من الوقت للحديث عن

هذا اللقاء مع كل من ركب الحافلة، وعندما ترجل لم يذهب إلى بيته مباشرة، بل توجه إلى دكان القرية واشترى كيلوغراما من الحلوى، التي لا يشتريها عادة، وقد فعل ذلك بناء على المخطط الذي كان قد رسمه في الطريق، والذي يقتضي أن يدخل جوهر إلى دكان عبودي ويطلب منه أن يعطيه كيلوغراما من الهريسة، فيستغرب عبودي بدوره طلب جوهر الذي لا يشتري الهريسة عادة ويسأله:

- خير يا جوهر.. ليس من عادتك شراء الهريسة؟

فيرد عليه جوهر بنوع من اللامبالاة يظهر وكان الأمر عادي بالنسبة له

- أنت على حق، ولكن هناك مناسبة تستحق أن نقدم الحلوى لأجلها.

فيثير بهذا الكلام فضول عبودي الذي سيقوم بسؤاله

- و ما هي؟

فيبدأ ساعتها جوهر وبكل رزانة بسرد ما يريد سرده قائلا (بحسب المخطط ايضا)

- لقد دعيت إلى لقاء تاريخي مع السيد الرئيس في الخامس عشر من الشهر الحالي، وأنا الوحيد الذي دعي من قريتنا.

فتجحظ عينا عبودي لما يسمعه ولا يصدق ما يقوله جوهر، ويشعر بحسد كبير نحوه.

ولكن الأمور جاءت مغايرة تماما لما تصوره جوهر في مخططه، حيث أن عبودي لم يفعل كما رسم له جوهر في مخيلته، وإنما قام بوزن الهريسة وقدمها لجوهر وتابع عمله دون أن يوجه له أي سؤال عن سبب شرائه الحلوى، مما جعل جوهر يصاب بالخيبة، ويسأله بنبرة لا تخلو من العتب:

- لم تسلني عن سبب شرائي للهريسة؟

- ولما أسألك، هل تريدني أن أقوم بالسؤال عن السبب كلما قام شخص بشراء قطعة هريسة؟

- عليك أن تسألني.

قال جوهر بنبرة صارمة مقررا اختصار الطريق على عناد عبودي فسأله هذا عن السبب، وقام جوهر برواية القصة له مضفيا على نبرته ما يليق بالمناسبات التاريخية من تلوينات صوتية حتى تظنه في بعض الأماكن من حديثه يقرأ شعرا، ولكن عبودي رغم استماتة جوهر، لم يبدُ عليه أي تأثر، واكتفى بالقول :

- يا سيدي مبروك.

فعل ذلك وهو يتناول قطرميز البزر عن أحد الرفوف، ولم يكلف نفسه حتى بالالتفات إلى جوهر مما تسبب لجوهر بالخيبة وولد في نفسه بعض الحقد على عبودي في تلك اللحظة، وتمنى لو انه يرفعه إلى فوق راسه ويرمي به على الأرض، ولكنه أخذ الهريسة وانصرف.

وضع جوهر نصية الهريسة على الطاولة في غرفة الضيوف ثم تناول بطانية وعلقها على الجدار فاكتشف أن حجمها ملائم جدا، فقام بأخذ قياساتها موضحا لزوجته أنه سيكبر الصورة إلى هذا الحجم.

في المساء غادر جوهر القرية وقد وضع في جيبه كل مدخراته النقدية وحطم حصالة ابنه التي كان فيها بعض القطع النقدية، ولم يترك زوجته قبل أن تخرج من عبها ما كانت قد دفنته هناك كثمن للجوز لحشوة المكدوس، وعاد في حوالي العاشرة ليلا وفي يده كيس كبير تتدلى داخله بدلة رسمية مقلمة زرقاء اللون، معها قميص وربطة عنق انتقاهما له صاحب المحل بعد أن روى له سبب شراءه للبدلة، وفي اليد الأخرى كانت هناك علبة فيها حذاء اسود لامع، وعندما وصل إلى البيت خلع شرواله وثيابه الأخرى واستبدلها بالثياب الجديدة التي اشتراها للتو، ولم يخف إعجابه بنفسه عندما وقف أمام المرآة، أما زوجته فقد وضعت يدها على فمها لتخفي ابتسامتها التي خرجت إلى شفتيها عنوة عندما شاهدت جوهر لأول مرة في حياتها في البدلة ونعتته بنبرة نصفها سخرية ونصفها إعجاب:

- خواجا.

ولكن أمين الفرقة الحزبية لم يبتسم عندما ظهر جوهر في بابه صباح اليوم التالي بتلك البدلة الزرقاء، فقد غضب ووبخه

وطلب منه أن يذهب على الفور ويخلع هذه البدلة، وأوضح له أنه اختير للقاء بسبب شرواله، لأن اللقاء مع الفلاحين، وبالتالي فإن الأشخاص الذين يفترض ان تعرضهم نشرات الأخبار يجب أن يكونوا إما في شروال او في قمباز، ومع أن جوهر امتعض للنبرة التي كان يتحدث بها أمين الفرقة معه، إلا أنه بلع الإهانة التي لا تستحق أن يتوقف المرء عندها مقارنة بالشرف الذي سيحصل عليه بعد تلك المقابلة المجيدة وبترشيح أمين الفرقة بالذات، والذي أكرمه اليوم وكلفه بأن يدون مطالب الفلاحين لكي يتم تقديمها في اللقاء للسيد الرئيس، وهذا شرف لا يحصل عليه حتى واحد بالمئة من المناضلين، السيد الرئيس سيمسك بين يديه الورقة التي كانت بين يدي جوهر، يا إلهي، أمر لا يصدق، وسيقرأ ما كتبه جوهر بخط يده، هذا كثير، كثير حقا، يجب الانتباه للأخطاء الإملائية، ولكن اين المشكلة، يمكن تنقيحها بمساعدة الأستاذ.

ولكي لا يتهم جوهر بأنه عائلي الهوى وهذا ما يتناقض مع مبادئ الحزب، لا سمح الله فقد توجه بداية إلى عائلة الخصوم في قريته، الذين كانوا بدورهم في حالة امتعاض لأن الخيار وقع على جوهر، ولكنهم لم يكونوا يظهرون ذلك.

دون جوهر المطالب وكان على وشك الوقوف عندما سقطت به الكرسي التي كسرت إحدى أرجلها، ثم سارت الأمور بسرعة لم ينتبه فيها جوهر لنفسه إلا في المستوصف حث كان الطبيب يلف له الجبس على يده، من تحت الكتف بقليل وحتى المعصم ويعلمه

- ثلاثة كسور مضاعفة.

مما جعل جوهر يحتج

- أف يا دكتور ثلاثة كسور؟ .. لقد سقطت عن الكرسي وليس من الطابق العاشر.

- لأنك ثقيل.

قال له الدكتور وتابع لف الجبس على يده.

في البيت كان عدد كبير من سكان القرية متحلقين حول فراش جوهر للاطمئنان عن صحته، عندما أطلق جهاز الهاتف الخلوي نغمة مميزة جعلت جوهر يعلن للحاضرين بنبرة ارتياح:

- الرفيق أبو طارق.. لا بد أنه سمع بما جرى معي ولذلك يتصل ليطمئن.

وبالفعل فإن ملامح الارتياح التي تعمقت على وجه جوهر كانت توحي بأن كلمات أبي طارق التي لم تكن مسموعة للحضور تعبر عن الاهتمام الذي تبديه قيادة الفرقة بصحة الرفيق جوهر، ولكن شيئا ما قيل على الطرف الآخر للخط جعل جوهر يقفز من الفراش صارخا:

- هذا ليس كلاما.. بعد أن وصلت اللقمة للفم؟

لم يتمكن أحد من سماع الجواب على السؤال الذي اطلقوه جميعا:

- ما الذي حصل؟

لأن الرفيق جوهر كان قد غادر الغرفة قبل أن يتناهى إلى سمعه سؤالهم، ولم يكن هذا يقلقه اصلا.

في الفرقة الحزبية كان الرفيق أبو طارق يجلس خلف طاولته حين دفع جوهر الباب برجله ودخل صارخ:

- ما هذا يا رفيق أبو طارق.. الا يستطيع المواطن أن يكسر يده في هذا البلد.. فورا تقوم الحكومة بحرمانه من حقوقه المدنية، ما هذا؟!!

- لا تحشر الحكومة في الموضوع.

قال أبو طارق بنبرة لا تخلو من التهديد ثم اردف:

- الحكومة لا علاقة لها بالموضوع، قيادة الفرقة اتخذت القرار.

امتعض جوهر أكثر

- أنتم.. الحزب الذي افنيت عمري وأنا أناضل في صفوفه.. ولماذا يا رفيق أبو طارق.. ما الذي فعلته حتى يعاقبني حزبي.. هل هناك في النظام الداخلي ما يمنع المناضل من كسر يده

- لا تتفوه بهذا الكلام الفارغ يا رفيق جوهر.. الفرقة لم تقرر ذلك هكذا.. الفرقة استشارت جهات مختصة.. تم شطب اسمك لضرورات أمنية.

لم يفهم جوهر هذا التلميح القذر، كما وصفه في داخله، وتساءل:

- أنا؟.. لدوافع امنية.. ما هذا الكلام يا رفيق أبو طارق؟.. إذا كان يمكن الاشتباه بالحجر لدواع أمنية فإنه لا يمكن الاشتباه بي.

تململ أبو طارق في مكانه وبدا على وشك الانفجار ثم نفث من صدره هواء حبيسا وطلب من جوهر الهدوء، وأوضح له أن الرفاق في فروع الأمن يشتبهون بأنفسهم ولا يشتبهون بجوهر، الأمر الذي اثلج صدر جوهر وجعله يهدا قليلا، بعدها بين له أبو طارق أن الجهات المختصة التي شطبت اسمه من القائمة هي جهات أعلى مما يتصور، وهمس له من تكون ففغر جوهر فاه وجحظت عيناه قليلا وتساءل:

- وصل الأمر إلى هناك؟

- نعم يا رفيق جوهر.. ماذا تظن إذا.. المساعد عبدو اللي شطب إسمك؟.. المساعد عبدو لا يمون على مؤخرته في هذه الموضوعات، هذه أمور لامزاح فيها، ما ادراهم أن تحت الجبصين مواد ناسفة أو سلاح ما..

كاد جوهر يقفز إلى الوراء واستغرب:

- انا؟

- يا أخي أنا أعرفك.. ولكن هؤلاء لا يعرفونك، وحتى لو عرفوك، فهذا أمر لا مجاملة فيه.

- لا مشكلة، احضر معي صورة اشعة تثبت أنه لا يوجد تحت الجبس شيء..نحن في عصر العلم والتقنيات.

- وما أدراهم ان هذه الصورة ليدك وليست ليد شخص آخر؟ شغل مخك يا رفيق جوهر.

- أحضر لهم تقريرا من الطبيب يثبت أن الصورة ليدي.

عندها انفجر أبو طارق ولم يعد يحتمل:

- أخي، ما لك لقاء مع السيد الرئيس، وأعلى ما في خيلك اركبه، العمى، ما هذا يا؟!

تأمل جوهر أبا طارق طويلا وكله يرتجف وشفتاه تتراقصان على وشك ان تنطقا شيئا مهما، ولكنه فضل عدم الكلام واكتفى بحركة من يده تدل على مدى ضيقه وانزعاجه واستدار منصرفا.

في الطريق كان جوهر ينتحب ولكن دون أن يذرف دمعا، ربما من الأصح القول إنه روحه كانت تنتحب، وكان قد استسلم للأمر الواقع وادرك أنه لا مجال للقاء الرئيس، ولكن أبو انيس الذي ندهه من الخلف أيقظه من نحيب روحه، وأيقظ له جروحه حين أعلمه ان الإطار جاهز، ولكن ورغم الحسرة التي سيطرت عليه عندما شاهد الإطار في محل أبو انيس المصور، فقد تفتق ذهنه عن

فكرة ربما تحل له موضوعه، فطلب من أبو أنيس الحفاظ على الاطار عنده في المحل ريثما يعود.

كما اقتحم جوهر مكتب أبي طارق في قيادة الفرقة، قام باقتحام مكتب الطبيب مدير المستوصف، الذي قام بتجبير يده، مما جعل الطبيب يجفل بادئ الأمر، وكان ينوي أن يوبخ جوهر على طريقته في الدخول عندما يلتقط أنفاسه، ولكن جوهر لم يفسح له المجال أبدا، فقد طلب منه فور دخوله ان ينزع له الجبس، مبررا طلبه بان اليد يده وهو حر فيها، ولكن الطبيب تعامل مع طلبه كما يتعامل مع شخص مختل عقليا، وحاول أن يشرح له المضاعفات التي ربما تحصل إذا فك الجبس، غير أن جوهر لم يدعه يكمل، إذا أخرج من جيبه حفنة من النقود الورقية والمعدنية ودسها في جيب مريول الطبيب قائلا:

- حلال زلال عليك دكتور..فك لي الجبس.

فما كان من الطبيب إلا أن طرده ورمى له النقود في إثره، فقام جوهر بجمعها بيد واحدة موجها عدة تهم للطبيب، أهمها انه لا يقوم بخدمة المواطنين الا بالواسطة، وهذا جعله يفكر بموضوع الواسطة فاتصل بأحد اقاربه الذي على علاقة جيدة بالطبيب وطلب منه أن يقوم بواسطة الخير، فجاء قريبه وطلب من الطبيب أن يساعد جوهر، ولكن القريب عندما علم ما هو الموضوع الذي يتوسط فيه شعر بخجل كبير وطرد جوهر بدوره كما يطرد ولدا مذنبا.

خرج جوهر ممتعضا وقد بدأت تسيطر عليه فكرة المؤامرة، ولم يخرج من باب المستوصف حتى كانت قد اتضحت خيوط هذه المؤامرة:

- السفلة، أنا أهتم بمطالبهم واذهب إليهم لتسجيلها وهم يطعنونني في الظهر ويجلسونني على كرسي مكسور.

وهكذا فقد تبين أن أفراد العائلة المنافسة وراء الموضوع، وأن الطبيب منخرط معهم في المؤامرة، وما قصة الكسور الثلاثة المضاعفة إلا أسطورة من نسج خياله من اجل تعقيد الموضوع، ايعقل أن يصاب شخص سقط عن كرسي بثلاثة كسور مضاعفة؟ هذا هراء.

لم يتمالك أبو طارق نفسه وانفجر ضاحكا حين سمع بفرضية المؤامرة مما حدا بجوهر لاتهامه بالاشتراك بالمؤامرة، وبالإساءة لأهداف الحزب في العدالة والمساواة، وانهم يميزون بين المواطنين، ولم يتوان عن القيام بنقد لاذع تداعى إلى ذهنه مع تيار التداعيات التي كانت تنساب في راسه، فاتهمه بالتملق وبأنه انتهازي، وقد حرم جوهر من المشاركة ليس بسبب الدواعي الأمنية كما ادعى، وإنما لأن جوهر لا يستطيع التصفيق بيد واحدة، ولكي يدحض له أبو طارق اقواله ذكره بأن عصام بيد واحدة وأن اسمه في راس القائمة، وبما أن كل كلمة في هذه الساعات العصيبة على جوهر كانت توحي له بمخرج جديد من الأزمة، فقد خطر له أن يتخلص

من يده، وتوجه فورا إلى المستوصف ليطلب من الطبيب قطعها بحجة إصابتها بالغنغرينا، ولكنه في الطريق هدأ قليلا وسخر من نفسه على هذه الفكرة السخيفة، وغير طريقه متوجها باتجاه موقف الباص الذي يتوجه إلى قريتهم، واستسلم مرة أخرى للأمر الواقع وعادت روحة تنتحب من جديد.

ولكن وكما كانت تقول امه (لا شدة على مخلوق دامت) فقد سخر له القدر شخصا من معارفه القدماء قادم إلى القرية في زيارة لأهله، سأله عن أحواله وسبب هذا الحزن الذي يتدفق من عينيه، ما دفع جوهر لأن يتنهد بحسرة ويقول:

- إييه.. وظلم ذوي القربى اشد (مظاظة) على النفس..

ثم شرح له حجم المؤامرة المحاكة ضده وما جرى من أمر اللقاء، فنصحه الصديق بألا يستمع إلى كل هؤلاء ويتوجه إلى المساعد اسماعيل وهو يحل له كل المشاكل.

ولأن الغريق يتعلق بقشة فقد نزل جوهر من الباص فورا وركب في الباص المعاكس وتوجه إلى المساعد اسماعيل في أحد الفروع الأمنية، المساعد اسماعيل الملقب بأبي صبحي لم يتركه يكمل كلامه ورفع سماعة الهاتف قبل أن يفهم ما يجري ووضع الهاتف على السماعة الخارجية، حيث سمع جوهر صوت الرفيق أبي طارق على الطرف المقابل يقول :

- آلو..

ثم دار الحوار الذي سمعه جوهر كله وقام فيه المساعد اسماعيل بتوبيخ أبي طارق كما لو أنه يوبخ ولدا صغيرا، وبنفس الوقت كان أبو طارق يتحمل الإهانات صاغرا، وعلم جوهر ان التضحية به تمت لا بسبب الدواعي الأمنية كما قال أبو طارق ولا بسبب الجبس، وأن ذلك جرى فقط لأن المتنفذين في الناحية يريدون تسجيل معارفهم واقاربهم، وكاد جوهر يجن جنونه عندما علم بوجود اسم أحد أولئك الذين يسمهم جوهر بالمعارضة فقال لأبي طارق موبخا عندما التقاه:

- ألا تخجل من نفسك؟ تشطب من القائمة اسم (المناظل) وتضع اسم (المعارظ)؟

وهكذا عادت الأمور إلى مجاريها وعاد جوهر يسجل المطالب وأخذ الإطار من محل أبي أنيس ودفع ثمنه وجلس ينتظر اللقاء المنشود يعد حتى الدقائق في انتظاره.

وأخيرا جاء الموعد ووجد جوهر نفسه يقف في آخر طابور مؤلف من ثلاثين شخصا يخضع الواقفون فيه لعملية تفتيش دقيقة قبل أن يسمح لهم بالدخول، وعندما وصل الدور إلى جوهر تم تفتيشه وبطبيعة الحال لم يعثر على ما يثير الشبهات وكاد الحلم يتحقق لو ان جوهر لم ينس بطاقة هويته في البيت، عندما طلبوها منه في البداية مد يده بثقة إلى جيب جاكته الداخلي ولكنه لم يجد شيئا ثم إلى جيب شرواله، فلم يجد هناك شيئا ايضا، عندها اخذ

ينقب كالمجنون في جيوبه التي لم يعثر فيها على ما يثبت شخصيته فطلب منه الحراس ان يغادر المكان، وعبثا كان يحاول أن يستدعي لهم شهودا يثبتون أنه جوهر المسجل اسمه في اللائحة، حيث حمله شخص و وضعه عند السور الخارجي وطلب من الحراس عدم السماح له بالدخول.

في هذه المرة وعندما كان جالسا في الباص العائد إلى القرية لم تكن روح جوهر فقط التي تنتحب، كان كل شيء فيه ينتحب كانت دموعه تنهمر بصمت وكان يتنهنه بين الحين والآخر، ولم يتحرش به احد سائلا عن السبب، فالجميع كانوا يعرفون السبب.

عانى جوهر من الاكتئاب لاكثر من شهر ثم حمل الإطار وأخذه إلى دكان عبودي الذي نظر إلى جوهر الواقف داخل اضلاع الإطار ممسكا به من طرفيه بكلتا يديه وسأله عندما اقترح عليه جوهر أن يعرضه في دكانه فربما يشتريه احد ابناء البلد فلا يضطر لحلمه مرة اخرى إلى محل المصور أبي أنيس ليبيعه له بنصف ثمنه، فقبل عبودي العرض وسأله عن سبب كبر حجم الاطار الذي كان جوهر قد تركه مفاجاة لأهل القرية ولم يخبر به احد، فقال جوهر:

- هذا إطار الصورة.

- أي صورة؟

سأل عبودي مستوضحا، فأجابه جوهر:

- الصورة التي لم اتصورها.

بهوذا الأسخريوطي

ينتمي جميل قعقور، منذ ما يقارب الثلاثين عاما، إلى حزب يساري كان محظورا لفترة طويلة من الزمن، معظم أعضاء هذا الحزب تم اعتقالهم وقضوا في السجون فترات مختلفة كلٌ تبعا لمكانته في التنظيم، ويمكن القول إن جميل هو واحد من قلة قليلة من الرفاق الذين لم يجر اعتقالهم، أو حتى استدعاءهم للتحقيق، وهذا إن دل، فإنما يدل على أنه لم يكن موضع شك لدى أجهزة الأمن، وهذا بدوره إن دل، إنما يدل أن جميع رفاقه الذين تم اعتقالهم كانوا مخلصين فلم يبح أحدهم باسمه أثناء عمليات التحقيق، ومن جهة أخرى فإنه يدل أيضا على مستوى حرصه وحيطته، التي كانت تسمى بمصطلحات حزبهم بـ «اليقظة الثورية».

منذ أقل من شهر شاءت الظروف التي ساءت في المدينة كثيرا أن يعود جميل إلى قريته لكي يعمل في الأرض التي أصبحت أكثر جدوى من عمله كسائق تاكسي في المدينة، ولم يكن وحده الذي عاد، فقد كان واحدا من مجموعة كبيرة ممن طردتهم المدينة إلى حيث أتوا قبل ثلاثين عاما، ومن بين هؤلاء كان رفيق دربه ملحم مالحة الذي ينتمي لنفس الحزب أيضا، ولكنه بخلاف جميل اعتقل عدة مرات وتعرض للكثير من التعذيب.

في القرية، كان جميل وملحم اللذان عمد النضال صداقتهما حالة شاذة عن باقي سكان القرية التي كانت تنقسم إلى نصفين، نصفها ينتمي إلى آل قعقور، ونصفها الثاني إلى آل مالحة وكانت العائلتان في تنافس شديد، كل يود إثبات أحقيته بالأفضلية والتفوق، ولا تتركان فرصة واحدة تسنح لذلك إلا ويتم استخدامها على أتم وجه لهذا الغرض، فإن عض كلب أحدا من آل مالحة، كان ذلك حديثا شيقا لسهرات آل قعقور، وإن تزحلق أحد أفراد آل قعقور كان ذلك مناسبة للتندر لآل مالحة، وإن نجح ولد في الصف الأول من آل مالحة كان ذلك مناسبة لحملة دعائية تحريضية تثبت تفوقهم على آل قعقور فما بالك إن تخرج طبيب أو مهندس أو ما شابه، وبسبب هذا التنافس فقد كانت الصداقة المتينة بين جميل وملحم أمرا غير مألوف لدى سكان القرية، فالتاريخ لا يذكر، فيما يذكر، أن صداقة نشأت بين شخصين من هاتين العائلتين، رغم أنهم جميعا يقومون بواجبهم على أكمل وجه في المناسبات الاجتماعية كالأعراس والمآتم وما شابه ذلك، يقومون بواجبهم لدرجة تظن أن عريس آل قعقور هو عريس آل مالحة، ولكن هذا لم يكن سببه حب أولئك لهؤلاء أو هؤلاء لأولئك، وإنما كان لإثبات عدم تقصيرهم في القيام بما يتطلبه الواجب، الذي كان في أغلب الظن السبب الرئيسي في المبالغة، بالفرح في مناسبات الفرح وبالحزن في مناسبات الحزن، الكرم والشهامة والنخوة وكل ما يتغنى به سكان أم الطنافس منذ غابر الزمان، كلها كانت مجالا

حيويا للتنافس القائم بينهما، فإن ذبح آل قعقور كبشا في مناسبة ما، عليك أن تعرف أن آل مالحة سينحرون كبشين اثنين في المرة القادمة، وبعد ذلك سيقوم آل قعقور بالإطاحة بثلاثة رؤوس منها، وهذا في أغلب الظن هو سبب القضاء على الثروة الحيوانية في تلك القرية.

جميل وملحم شعرا بنفس الدرجة من القرف تجاه هذه المظاهر التي أرجعاها إلى بقايا العهد الإقطاعي وأخلاقياته المتعفنة، وهذه كلمة كان يستخدمها ملحم دائما في وصف أعدائه الإيديولوجيين، أما جميل فكان يستخدم كلمة أخرى بذيئة، أو بالأحرى عدة مفردات أخرى بذيئة لوصف هؤلاء الأعداء، ولهذا السبب فقد خطر لهما النأي بنفسيهما عن هذا المجتمع والانعزال عن هذه الأجواء المسمومة بالكراهية والتخلف، ولكن هذا لم يكن يتفق مع فكر وسياسة الحزب الذي يفرض على العضو أن يكون مرتبطا بعلاقة وثيقة ولصيقة بالجماهير، عليه تقديم تقرير عنها في كل اجتماع ضمن بند من البنود التي تدرج في جدول الأعمال بشكل آلي، وهو بند «النشاط الجماهيري»، ولهذا فقد كان الاثنان يشاركان كل في نشاط عائلته، ويحاول كلما سنحت له الفرصة أن يدس فكرة ما من أفكار الحزب في الحديث بحيث تشكل مع الزمن تراكما ربما يكون ذا فائدة، بحسب قانون تحول الكم إلى نوع، وكان للأفكار التي تثير العداء ضد الإمبريالية النصيب الأكبر، خاصة من قبل جميل الذي تكاد الإمبريالية تكون عدوه الوحيد في هذا

الكون، لدرجة أن أي حديث مهما كان نوعه، كان في حضور جميل سرعان ما ينعطف نحو الإمبريالية، أما ملحم فقد كانت البرجوازية حديثه المفضل، وخاصة الطفيلية منها، والتي كان يتقصد تسميتها بـ « الكمبرادور» إمعانا في إظهار ثقافته لمعشر الفلاحين.

المناسبة الأخيرة التي سبقت مصيبة جميل، كانت زيارة قام بها آل مالحة لآل قعقور تعاطفا معهم بعد أن اعتقل أحد مغتربيهم أثناء عودته في المطار بسبب قيامه بتزوير التاريخ في جواز سفره الذي انتهت صلاحيته، وقد وجد كبير آل مالحة في هذه المناسبة ثغرة يستطيع عبرها إثبات تفوق عائلته على آل قعقور، حيث أن أحد أفراد أسرته يعمل عنصرا في أحد الفروع الأمنية، فعرض على كبير آل قعقور أن يقوم هذا العنصر بطلب المساعدة من رئيس الفرع الذي يعمل فيه لكي يضع ذلك يده في الموضوع ويتوسط في إخلاء سبيل المغترب الموقوف، ولكن هذه الحيلة لم تكن لتنطلي على كبير آل مالحة فهو يعرف خلفيات هذا العرض معرفة تامة، ولذلك فقد شكر غريمه بكل أدب وقال:

- الحقيقة ليس عندنا شك بنواياكم الحسنة، ولا بمدى سلطة الرجل، ولا أقول هذا الكلام للتقليل من قيمته، ولكن لدينا واسطة أثقل منه، وقد تحدثنا معهم في هذا الشأن.

أعرب كبير آل مالحة عن اطمئنانه وتمنى لهم التوفيق، ولكنه تساءل من باب الفضول:

- ومن هو واسطتكم؟

نظر كبير آل قعقور إلى صهره توفيق وكاد يستخدم اسمه في الصيغة التي كان قد فبركها بينه وبين نفسه، ولكنه بعد تأمل سريع فكر: (توفيق تحت أنظار آل مالحة لن يصدق أحد، خاصة وأنه لا يغادر القرية إلا نادرا)، ثم نقل ناظريه إلى فياض، ولكنه لم يتوقف عليه طويلا بعد أن قال لنفسه: (من سيقيم وزنا لهذا البغل، لكي يجعله صديقا له، إن صداقة فياض وقلة القيمة رديفان)، ثم نقل نظره إلى الأستاذ صياح وفكر: (هذا أيضا كتاب مفتوح، الجميع يعرفون عنه كل شي) ثم توقف بعينيه على جميل وانشرح صدره: (هذا غائب منذ ثلاثين سنة ولا أحد يعرف عنه شيئا، ربما لن يصدقوا ما أقوله ولكن لن يستطيعوا تكذيبه)، وأردف وقد وجد ضالته، ردا على سؤال خصمه:

- في الحقيقة جميل أوصاني أن لا أتكلم، ولكنكم لستم غرباء، جميل لديه أربعة أو خمسة أصدقاء رؤساء فروع أمنية، وأثقل بكثير من الفرع الذي يعمل فيه ولدكم.

جحظت عينا جميل، واشرئب عنق ملحم، وقام وغادر المجلس فورا، وفي الحال لحق به جميل، أما الباقون فلم يلحظوا خروج الاثنين لأنهم جميعا كانوا يستمعون لكبير آل قعقور الذي يتحدث عن متانة العلاقات التي تربط بين جميل ورؤساء تلك الفروع.

في الخارج كان ملحم يحث السير وجميل خلفه يتوسله التوقف لشرح الموضوع، ولكن هيهات أن يتوقف ملحم، أو أن يرضى بالكلام معه، بعد أن أصبح على قناعة تامة بأن الذي وشى به في جميع المرات التي اعتقل فيها هو جميل تحديدا، وعندما تمكن جميل من اللحاق به ووضع يده على كتفه، استدار ملحم نحوه بعنف وضرب يده مبعدا إياها عن كتفه، وبصق في وجهه صارخا:

- تفو... يهوذا الأسخريوطي..

لم يكن هناك مجال لكلام آخر، هذا ما فهمه جميل وهو يمسح وجهه بحزن، وتابع ملحم سيره بينما عاد هو على أعقابه، وفي منتصف الطريق إلى بيته لم يتمكن من حبس دموعه التي انهمرت بغزارة بعد أن انتابه نشيج لم يكن قادرا على السيطرة عليه.

لم تفهم زوجته سبب بكائه عندما فتح بوابة الدار ودخل، وعندما سألته مستفسرة، دفعها ودخل إلى غرفة أغلق على نفسه الباب فيها، وبكى حتى جفت دموعه، ثم دخل حالة اكتئاب مريعة، وشعر بمرارة في الحلق، وجفاف في الحنجرة، وصداع قاتل في الرأس، وتسرع في القلب، وكان يتمنى لو ينتهي كل هذا بموت سريع يخلصه من هذا العذاب، فمن سيقنع الرفاق الآن بأنه ليس يهوذا الأسخريوطي كما نعته ملحم، لا بد أنهم سيلصقون به تهمة الوشاية بكل الذين اعتقلوا ولم يعرف الواشي بهم منذ عشرين عاما وإلى الآن، تخيلهم في الاجتماعات الحزبية يتحدثون عنه بازدراء

ويبصقون ويقولون أشياء كثيرة كان قد سمعها سابقا بحق أشخاص اتهموا بالوشاية، وهنا كانت غدده قد ملأت نفسها بالدموع من جديد فعاد للبكاء والنشيج.

زوجته هي الأخرى كانت تبكي أمام الباب الذي دقته مرارا طالبة من جميل أن يفتح، ولكن دون جدوى، لقد كانت عاجزة تماما عن فعل أي شيء، ولذلك استسلمت للوضع وتكومت هي الأخرى في ركن مظلم في غرفة أخرى دون أن يغمض لها جفن حتى الصباح، وفي الصباح ومع استمرار إضراب جميل لم يعد أمامها بد من طلب مساعدة العائلة، وبطبيعة الحال فإن خير من تلجأ له في هذه الحالة هو كبير العائلة.

كبير العائلة بدوره استغرب عندما سمع قصة جميل، وتوجه إلى هناك فورا في محاولة لحل هذا اللغز، وعندما دق باب الغرفة التي يتحصن فيها جميل وناداه طالبا منه أن يفتح الباب، فإن جميل وبعكس ردة فعله على زوجته، تفاعل فورا مع كبير العائلة، فوثب إلى الباب وفتحه وانهال على العجوز بالاتهامات قبل أن يفتح ذلك فمه:

- أنت السبب.. أنت الذي مرغ تاريخي النضالي بالوحل.. من الذي دفعك لتقول ذلك.. منذ متى أنا لي علاقات بفروع الأمن؟..

استغرب العجوز هذا الغضب الذي لم ير له مبررا وقال:

- لم يدفعني أحد.. فقط أردت أن أجعل لك قيمة بعيون أهل القرية.. وكما يقولون.. صيت غنى ولا صيت فقر.

- من طلب منك أن تجعل لي قيمة.. لقد حطمتني.. لقد دمرت ماضيَ ومستقبلي.. أنت أسوأ من الإمبريالية العالمية بمليون مرة. عليك اللعنة.

(ملاحظة: جميل طبعا لم يقل عليك اللعنة ولم يستخدم هذا التعبير ولو لمرة واحدة في حياته، ولكنه قال كلاما بذيئا تناول أم العجوز وأم آل قعقور فضلنا ترجمته على هذا الشكل حرصا على الذوق العام)

شعر العجوز بإهانة كبيرة، وكان على ثقة بأنه كان ليطلق النار على جميل لو كان بحوزته قطعة سلاح، ورغم أنه فكر بلطم جميل على أسنانه بضربة تجعلها تسقط من فمه، إلا أنه فضل الانصراف منعا لحدوث مشكلة يصل صداها إلى آل مالحة فيجدونها فرصة للتهكم، أما جميل فعاد إلى غرفته وأغلق على نفسه الباب من جديد، ولكن حدة المصيبة كانت قد خفت قليلا وبدلا من البكاء الذي استمر الليل كله، أخذ يفكر بطريقة يوضح فيها الأمور للرفاق، وقرر الذهاب لمحاولة إقناع ملحم مرة أخرى ولكن خجله وهو الخائن في عيون الآخرين منعه من الخروج نهارا، وانتظر حتى حلول الظلام لكي يخرج.

توجه ملحم لفتح الباب ظنا منه أن أحدا من أقاربه جاء لزيارته، ولكنه عندما فتحه و وجد جميل في الباب لم يتمالك نفسه وعاجله قبل أن يفتح فمه ليقول ما جاء من أجله:

- تفو... يهوذا الأسخريوطي.

أقفل ملحم الباب حتى قبل أن ينتهي جميل من مسح وجهه، فأدرك هذا أنه من المستحيل شرح الأمر لملحم وعاد أدراجه، وفي الطريق انهمرت دموعه مرة أخرى وانتابه النشيج، وفي البيت أغلق على نفسه الباب وعاد إلى الحالة السوداوية السابقة، فإذا كان ملحم الذي عجنه وخبزه كما يقولون، ملحم الذي تجمعه معه حياة وصداقة تمتد إلى أكثر من ثلاثين عاما، ملحم الذي قاسمه أفراحه وأحزانه ورعى له عائلته أثناء سجنه، إذا كان ملحم يفكر بهذه الطريقة فكيف سيكون موقف الآخرين، الذين يعتبر ملحم مقارنة معهم واحدا من الحمائم، إن جاز هذا التعبير، (مستحيل.. لن يصدقني أحد.) فكر جميل وأخذ يبحث عن طريقة يثبت بها براءته، وفي حوالي الرابعة أو الرابعة والنصف صباحا عثر على ضالته، كما عثر نيوتن على الجاذبية.

الاعتقال. الاعتقال هو الطريقة الوحيدة التي تثبت للجميع براءته، ولذلك فقد انتظر شروق الشمس على أحر من الشمس نفسها، وعندما فعلت الشمس ذلك بعد أن عذبته لساعات طويلة ومضنية من الانتظار، توجه فورا إلى دكان القرية حيث يتواجد

بشكل دائم أربعة أو خمسة أشخاص يتبدلون أثناء النهار بحسب ما تقضيه حاجة كل منهم، فكر جميل، بأنه إذا جلس لثلاث أو أربع ساعات فسيكون الجميع قد سمع ما سيقوله.

وفي الدكان انطلق لسان جميل فكان يقول كل ما منعته يقظته الثورية من قوله سابقا، وهو الآن في الساعة الرابعة مساء أصبح على يقين بأنه لم يبق أحد من سكان القرية لم يسمع ما قاله، لم يكن يهمه أنهم كانوا ينهضون ويعتذرون بحجج مختلفة من أجل الانصراف، فجميعهم علم بما أراد قوله، حتى وإن لم يسمع حتى النهاية، وبحثهم عن مبررات للانصراف هو أكبر دليل على ذلك، ولهذا فقد كان على يقين بأنه بعد منتصف الليل، ربما في الواحدة وربما في الثانية وربما بعد ذلك بقليل، هذا التفصيل لم يكن مهما بالنسبة، المهم أنه بعد منتصف الليل ستأتي دورية وتطوق البيت وتقتاده إلى جهة مجهولة حيث تنتظره غياهب السجون والزنازين التي أصبح على أحر من الجمر شوقا لها الآن، ولذلك فعندما كان عائدا إلى البيت كان وجهه مشرقا وينتابه شعور من تخلص من مرض خطير آلمه طويلا، وفي البيت طلب من زوجته أن تضع الطعام وأكل بشهية لم تعهدها فيه زوجته حتى عندما يكون في أحسن حالاته المزاجية، وأثناء الطعام صرح لها تغمره الغبطة بألا تخاف ليلا عندما يأتون لأخذه، وعندما شعرت بالقلق زجرها ووضح لها أن هذه ضريبة على كل مناضل أن يدفعها، وقد آن الأوان لكي يدفعها هو، وحدثها بهرطقات كثيرة مثل أن سياط

الجلادين هي أوسمة على ظهر المناضل وأن الزنازين هي بيته الثاني إذا كان مناضلا حقيقيا، وأشياء من هذا القبيل، وبطبيعة الحال فإن جميل لم يخلد للنوم، وزوجته كذلك لم تنم، جهزت له عدة بدلات داخلية، وجوارب صوفية تحسبا للبرد في الأقبية التي تخيلتها تشبه البرادات كما وصفها لها، و وضعت له لوحين من الصابون وكروز دخان كان هو قد اشتراه من الدكان لهذا الغرض أيضا، وأشياء أخرى مما يوضع للمسافر في حقيبته كي يتدبر أمره في بداية إقامته، مضت الساعة الواحدة، ولحقت بها الثانية، ثم الثالثة، ونزف الليل ساعاته واحدة تلو أخرى، وجميل ينتظر، ولكن عندما لاح الفجر واكتست السماء بلون رصاصي باهت، أخذ جميل يشعر بالقلق، وعندما بدأت الشمس تطل برأسها من خلف قمة الجبل التي كانت تواجه منزل جميل في الشرق شعر بالحزن لأن أحدا لم يأتِ، وعندما أصبحت الشمس في نقطة مرتفعة في الأفق تحول الحزن إلى يأس من أن أحدا لن يأتي.

الذي كان يجهله جميل هو أن رفيق دربه ملحم كان يتعذب ليس بأقل منه، فهو الآخر كما جميل، لم يذق طعم النوم تلك الليلة ولا التي قبلها، كانت ذاكرته تسترجع العذاب والسياط ووجوه جميع الجلادين، الذين رأى فيهم جميعا وجه جميل، ولم تشرق الشمس إلا وكان قلبه قد امتلأ بالحقد، وعندما قرعت بوابة جميل في حوالي الساعة الثامنة صباحا تهلل وجهه وحمل الكيس الذي أعدته له زوجته وتوجه نحو البوابة منتظرا أن يفتح البوابة فيشاهد أفراد

الدورية المسلحة أمام الباب، ولكنه عندما فتحه فوجئ بملحم يبصق في وجهه:

- تفو.. يهوذا الأسخريوطي.

ثم انصرف ملحم بينما عاد جميل إلى نقطة البداية من اليأس والإحباط، وتولد لديه شعور بالحقد على جميع سكان القرية لأن أحدا لم يبلغ.

أما في واقع الأمر، فقد بلغ بما قاله جميل عدة أشخاص، منهم من دون ذلك خطيا ومنهم من اكتفى بالشفاهية، ولكن مشكلة جميل ليس في هذه النقطة، مشكلته أنه لم يفهم بعد أن الشعارات تغيرت وما كان خطيرا لم يعد خطيرا وصار يقال في الصحف وحتى على ألسنة بعض الوزراء في اللقاءات الصحفية، جميل وحده الذي لا يزال يعتقد بأن ما يتفوه به يعد ضربا من الشجاعة والجرأة الزائدة عن اللزوم، أما الجهات التي كان يظن أنها سترسل الدوريات لاعتقاله فقد كانت تشعر بالارتياح لما يقوله جميل، بعد أن كان يحيرها صمته.

لعن جميل أهل قريته لأنه، كما ظن، لا يوجد بينهم مخبر واحد، وقرر تصعيد النضال بطريقة لا يمكن ألا تصل إلى الجهات المطلوبة.

وفي المساء شوهد يحمل سطل دهان وفرشاة ويدور في شوارع القرية يكتب على الجدران تلك الشعارات التي كان يظن أنها كفيلة

بزجه، (هكذا اضمن ـ قال جميل لنفسه مطمئنا ـ حتى إن لم يبلغ أحد فلا بد أن دورية ستمر وستسأل: من الذي كتب على الجدران، ولا بد أن أحدا سيقول لهم: جميل) ثم تابع كتابة الشعارات بما تبقى لديه من طلاء، وبعد أن انتهى رمى الدلو وعاد إلى البيت وجلس في انتظار دورية تأتي بعد منتصف الليل، في الواحدة أو الثانية أو الثالثة أو غيرها من الساعات، ولكن الشمس خيبت أمله مرة أخرى، وأشرقت من خلف الجبل المقابل لبيته من جهة الشرق، وعندما خرجت بكامل قرصها وارتفعت في السماء قليلا التفت جميل نحو زوجته التي كانت تناوب قربه متثائبة، وبث في صرخة واحدة كل ما يكنه من حقد على سكان القرية:

ـ لماذا لا يبلغون.. الكلاب..

لم تعرف زوجته بما تجيبه، وهو لم يكن ينتظر جوابا، فقد كان قد قرر تصعيد العملية النضالية أكثر، وخرج إلى الشارع وأخذ يهتف بنفس تلك الشعارات التي كتبها على الجدران، ولم يعد إلا قبيل المغيب، وقد بحت حنجرته وما زال فيها الكثير من الكلام الذي لم يقله، ولكنه كان واثقا بأن ما قاله هذه المرة، كان كافيا لكي تأتي الدورية، إلا أن الدورية لم تأت، وأشرقت الشمس من جديد، ولذلك قرر توسيع رقعة النضال فاصبح يتجول بين القرى ويهتف، وعندما لم تنفعه القرى المجاورة توجه بهتافاته نحو المدينة، وأصبح يتوقف أمام المؤسسات الرسمية خصيصا، وكان يطيل التوقف أمام المؤسسات التي يرى حراسا على أبوابها، فهذا يشير إلى هويتها

بهذا الشكل أو ذاك، وأكثر ما كان يزعجه هي تلك الابتسامات التي كانت ترتسم على وجوه الأشخاص الذين كانوا يفتحون النوافذ ويتابعون ما يلقيه من خطب، وعلى وجوه الحراس الذين يقفون عند مداخل تلك الأماكن، والذين كانوا يجدون فيه تسلية تخفف وطأة الملل التي تبعثها نوبات الحراسة، خاصة عندما يأتي بالبيجاما، أو عندما يأتي وقد نسي أن يرتديها.

استمر جميل بإطلاق الهتافات لأربع سنوات وقليل، ولم يعد أمام آل قعقور إلا طريقة واحدة لوقف هذه المهزلة التي مرغت أنفهم بالوحل أمام آل مالحة ولذلك تم نقله إلى المستشفى، حيث تابع إطلاق الشعارات هناك.

أما ملحم فعلق على ذلك قائلا:

- يستحق كل ما يجري له... يهوذا الأسخريوطي هذا.

أعط الخبز لخبازه ولو أكل نصفه

أعط الخبز لخبازه حتى ولو أكل نصفه، عبارة كان يرددها أبو علي قبل أن يرتكب كل حماقة من حماقاته، وقد كان يساعده في ذلك تاريخه الطويل المجهول تماما لأهل القرية، ففي بيت صديقه هاني الدكنجي وبينما كان يرشف أول رشفة من كأس الشاي ألقى نظرة باتجاه التلفزيون وطلب من هاني:

- شغل التلفزيون لكي نشاهد الأخبار.

- التلفزيون معطل.

أجابه هاني، فما كان من أبي علي إلا أن وقف ودار حول جهاز التلفزيون متأملا شيئا ما ثم وضع يديه على خاصرتيه وقال:

- عندما تتعطل الآلة يصلحونها، لماذا لم تصلحه حتى هذه اللحظة؟

- عرضناه على صابر المصلح فقال يلزمه تغيير قطع، خذوه إلى المدينة.

- ومنذ متى اصبح صابر معلما؟

قال أبو علي بنبرة لا تخلو من السخرية وجلس القرفصاء قبالة جهاز التلفزيون وأخذ يتأمل شيئا لا أحد يعلم ما هو إلاه، ثم

أضاف جملته الثانية التي يقولها دائما للتعبير عن جهل الشخص موضوع الحديث:

- شو بيفهم الحمير بأكل الجنزبيل؟!

ومد يده إلى الخلف :

- أعطني مفكا.

شعر هاني بالقلق عندما طلب أبو علي المفك وسأله:

- أبو علي.. انت تفهم في التلفزيونات؟

- أنا لولا ضعف حاسة البصر التي ابتليت بها بعد داء السكري لكنت اشهر مصلح للتلفزيونات في الشرق الأوسط، أنا كان عندي أكبر ورشة تصليح تلفزيونات في ساحة الدباس في بيروت، كانوا يحضرون لي أجهزة التلفلزيون من جميع مدن وقرى لبنان.. وأحيانا كانوا يجلبون لي الأجهزة من المهجر.. عندما يعجز عن تصليحها الأجانب.

كان أبو علي يتحدث بثقة لا تترك للضحية مجالا للشك ولو بنسبة واحد بالمئة، والحقيقة ان أبا علي عمل بالفعل لمدة سنتين في ساحة الدباس في بيروت، ولولا اندلاع الحرب الأهلية لبقي هناك حتى الآن، ولكنه بطبيعة الحال لم يكن يملك ورشة تصليح تلفزيونات، وإنما كان آذنا في فندق يدعى نزل سيف الدولة وكانت مهمته تنظيف الغرف والمنافع.

ناوله هاني المفك فبدأ أبو علي بمحاولة فك الغطاء الخلفي للجهاز، ولكنه لم يفلح فعلق:

- البراغي بايظة.

ثم وضع المفك بين الغطاء والجهاز وأخذ يحركه ذات اليمين وذات الشمال بحذر لكي يخلع الغطاء دون كسره، غير أن الحذر لم ينفع، فقد انكسر نصف الغطاء البلاستيكي وسقط على الأرض بينما بقي النصف الآخر معلقا بالجهاز، أما هاني فقفز من مكانه رغم أنه لم يكن يجلس، وصاح:

- ماذا فعلت يا أبا علي.

فاجابه أبو علي ببرودة بالغة:

- لا تقلب لي حاجبيك، لم يحصل إلا الخير.. بعد أن اصلح لك التلفزيون أقوم بلحمه، هذه أسهل قطعة في التلفزيون.

اطمأن هاني قليلا وشعر بعد كلام أبي علي بأنه جاهل، وللحقيقة والتاريخ ولكي نكون اكثر دقة فإن هاني لم يشعر بنفسه جاهلا، وانما شعر أنه حمار وتولد في داخله إعجاب خفي بأبي علي الذي يتحدث بثقة بالغة في النفس، وصمت بعدها مكتفيا بمراقبة ما يفلعه أبو علي، الذي كان بعد كل محاولة لفك شيء ما يعلق:

- البراغي بايظة.

ثم يدك المفك بين القطعة والهيكل ولا يلبث ان يفصلها بعد أن يكون قد كسر جزءا منها.

باختصار بعد ما يقارب النصف ساعة كانت جميع قطع التلفزيون قد تجمعت أمام أبي علي وقد انكسر جزء من كل منها، وعندما لم يبق شيء قابل للفك وقف أبو علي الذي كان لا يزال يجلس القرفصاء وتساءل:

- صناعة أين هذا التلفزيون؟

- المانيا.

أجاب هاني واضاف:

- جلبه الولد معه عندما ذهب في الدورة التي ارسله إليها معمل السجاد.

فما كان من أبي علي إلا ان لوى عنقه، وهي حركة كان يقوم بها كلما قرر أن يعرب عن استغرابه من أمر ما:

- ومنذ متى اصبح الألمان يفهمون بالتلفزيونات؟! التلفزيونات خلقت لليابانيين.. فليصنع الألمان السيارات، لماذا يعتدون على كار اليابانيين والأميركان..

- ماذا نفهم من هذا الكلام؟

قال هاني وقد تسرب إلى نفسه القلق، فجلس أبو علي وتناول كأس الشاي الذي برد وقال:

- لو قلت لي منذ البداية أن التلفزيون شغل المانيا لقلت لك ارمه في القمامه، أنا لا امد يدي إلى تلفزيون صناعة المانية.. الألمان لا يفقهون بالتلفزيونات.. إرمه في القمامة، فمكانه الطبيعي هناك.

من الطبيعي أن هاني، في تلك اللحظة بالذات كان يتمنى أن يسقط على أبي علي صاروخ يسحقه ولا يبقي منه أثرا، ولكنه لم يكن ليفعل ذلك بضيفه بشكل شخصي، لأن ذلك غير لائق بحسب الأعراف السائدة فاكتفى بالقول:

- لعنة الله على هؤلاء الألمان ما أغباهم.

وغني عن القول إن أبا علي تصنع أنه ليس هو المقصود في هذا الكلام، وودع هاني ناصحا اياه بشراء تلفزيون ياباني.

أمام بيت آل شريمان لاحظ أبو علي هرجا ومرجا فهرع إلى هناك ليجد الجيران والأهل مجتمعين حول ابنهم اليافع حسام، الذي سقط ويشعر بالم في رجله:

- ما الذي حصل بالضبط؟

التفت الجميع باتجاه الصوت فوجدوا أبا علي يقف وقد وضع يديه على خاصرتيه ثم اجابه الأب:

- سقط عن السطح وربما اصيبت رجله بكسر.

- وهل سيلتئم الكسر إن اجتمعتم حوله، أم ستتركونه يتالم حتى يلفظ أنفاسه.

- طلبنا الإسعاف.

قال الوالد الذي كان يسند راس ابنه المصاب على ركبته، فما كان من أبي علي إلا أن لوى عنقه معبرا عن ازدرائه:

- ومنذ متى ننتظر الاسعاف.. حتى تسعفنا.. من يسمعكم تتحدثون عن الاسعاف يظنكم من سكان باريس، لا من سكان ام الطنافس.

- ثم توجه إلى سحارة في داخلها بعض الأغراض فقلب الأغراض على الأرض وكسر السحارة ثم استخلص منها لوحين واتجه إلى المصاب:

- ابتعدوا من حوله.. افسحوا لي المجال لكي اساعده.

جحظت عينا الوالد فتساءل:

- وهل تفقه في هذا الأمر؟

- طبعا.

أجاب أبو علي بثقة بالغة بالنفس وأردف وهو يشق قطعة قماش معلقة على حبل الغسيل إلى نصفين:

- اربع سنوات ونصف في طرابلس الغرب مجبر عربي، المشفى الحكومي كانت تبعد مئة متر عن منزلي، ومع ذلك كان المكاسير ياتون إلي لكي اعالجهم، رغم أن الأطباء في المشفى كانوا أجانب.. الأطباء نفسهم كانوا يرسلون لي المرضى الذين

يعجزون عن علاجهم.. من شمال أفريقيا كلها كانوا يقصدونني لكي أجبر لهم كسورهم.

كما في كل مرة قال أبو علي نصف الحقيقة فهو كان فعلا في طرابلس الغرب، وكان هناك مشفى قريب من بيته، ولكنه لم يكن مجبرا عربيا، وانما كان يعمل في البناء.

- آآآآآخ.

صرخ المصاب عندما رفع أبو علي رجله لكي يضع أحد اللوحين اللذين انتزعهما من السحارة تحتها، فما كان من أبي علي إلا أن وجه له صفعة اطارت له الشرر من عينيه وجعلت عيون الجميع تجحظ وتتبادل النظرات المستفسرة عن سبب هذا السلوك، وقد لاحظ أبو علي ذلك فتأبط الوالد واخذه جانبا وأسر له:

- بهذه الطريقة نشغل المريض عن ألمه، يمكنك القول طب نفسي تقريبا، لا تقلق.

هز الوالد رأسه مقتنعا بكلام أبي علي الذي عاد إلى المصاب وتابع علاجه، موجها له الصفعات التي كانت تشتد مع كل آخ يطلقها المصاب، ولم ينته أبو علي من لف القماش حول لوحي الخشب اللذين حاصر بهما رجل المريض حتى كان الشاب يشعر بالم في حنكيه يفوق الألم الذي يشعر به في رجله، بسبب الصفعات الشديدة التي كان يوجهها له أبو علي، وفي اللحظة التي ربط فيها أبو علي الضماد على رجل المريض حضرت سيارة الاسعاف ودخل

الطبيب والممرض الذي يحمل في يده حقيبة وتوجها إلى المصاب فورا، وتساءل الطبيب:

- من ضمد رجل المصاب؟

فأجابه الأب

- أبو علي، مجبر عربي..

- حرك أصابع رجلك.

طلب الطبيب من المصاب ففعل ذلك بسهولة واخذ الطبيب يفك له ضماد أبي علي عن رجله قائلا:

- لا يوجد أي كسر في رجل الصبي... مجرد رض لا أكثر.. فليأت أحد معنا لأننا لن نجعله يبيت في المشفى، سنخرجه اليوم.

تلفت الجميع باحثين بأعينهم عن أبي علي لكي يروا ردة فعله على ما قاله الطبيب، ولكن أبا علي كان قد اختفى.

الأستاذ أمل، معلم المدرسة في أم الطنافس، اختلف منذ عدة ايام مع عديله وكاد الخلاف يتطور إلى شجار بالقبضات، لولا تواجد أهل الخير في المكان، والذين حالوا دون ذلك، فقد باع الرجلان قطعتي ارض ومصاغ زوجتيهما الأختين، وقطعا الطعام عن افواه أطفالهما لكي يتمكنا من شراء سيارة من نوع (ايج) روسية الصنع، وهي ارخص سيارة يمكن شراءها في سوق السيارات، لكي

يعمل الاثنان عليها، الأستاذ أمل مساءا بعد انتهاء الدوام الرسمي، وعديله في الصباح، وكان من المتوقع أن تساعد السيارة الأسرتين في تحسين الحالة المادية لهما لولا ظهور أبي علي في طريقهما، ففي أول يوم للأستاذ أمل خلف المقود، وبينما كان عائدا إلى القرية صادف أبا علي الذي كان عائدا من مكان ما سيرا على الأقدام فتوقف ودعاه للصعود، وهذا ما فعله أبو علي بسرور.

وفي القرية توقفت السيارة عند منعطف ضيق لم يعرف الأستاذ أمل كيف يخرج منه، فنظر إليه أبو علي وعلى وجهه ابتسامة العارف:

- جديد بالمصلحة؟

- صدقت.. يمكن القول إنني اليوم اول مرة خلف المقود بمفردي.

اشار له أبو علي بقفا يده بحركة فيها من الازدراء ماكان يكفي لإثارة غضب الأستاذ أمل، لو أنه لا يعرف أن خلف من قام بها نوايا طيبة، وأنه لا يقصد إهانته.

- ترجل.

وبينما كانا يتبادلان الأمكنه قال أبو علي جملته المعهودة:

- ماذا يقول المثل؟ أعط الخبز لخبازه حتى لو أكل نصفه.

ثم حرك ذراع علبة السرعة وأخذ يشرح للأستاذ أمل نظريا كيف يتصرف في مثل هذه المواقف، بعد ذلك ركز نظره على المنعطف

وطلب من الأستاذ أمل أن يفعل مثله، ولكنه عندما رفع رجله عن الدبرياج قفزت السيارة قفزا إلى الخلف وارتطمت بجلمود صخر كان خلفها مما أحدث فجوة في الصندوق جعلت السيارة عاجزة عن الحركة لاحقا فاضطر الأستاذ أمل لقطرها بمساعدة سيارة أخرى.

أبو علي نظر حينها إلى الخلف وقد استغرب ما حدث وتساءل بعد أن ثاب إلى رشده:

- كل السيارات في العالم الأنرييل فيها على اليمين وإلى الأمام، لماذا عندك بالعكس.. صناعة اين هذه السيارة؟

- روسيا.

أجاب الأستاذ أمل وفي نفسه قنوط من هذه الحياة، فرد أبو علي منفعلا:

- يا اخي منذ متى أصبح الروس يفهمون في السيارات، السيارات خلقت للألمان.. والألمان فقط، الروس دعهم لصناعة الدبابات والصواريخ، لماذا يعتدون على كار الألمان.

وتجبنا للاطالة يمكن القول إن أبا علي لم يترك بيتا في القرية لم يتسبب فيه بخراب ما، ومع ذلك فقد احتفظ بقدرته على الاقناع قبل كل حماقة يقدم عليها، ولم تتوقف حماقاته إلا بعد ذلك اللغم الذي عثر عليه احد الفلاحين صدفة في ارضه، والذي حاول

أبو علي فكه أمام الجميع مدعيا أنه كان أثناء خدمته العسكرية مهندس الغام، وهو بالفعل كان في كتيبة لهندسة الألغام، ولكنه كان حاجبا عند أحد ضباط الكتيبة.

كان يسود صمت عميق عندما كان أبو علي يحاول فك الصاعق من اللغم، وهي عملية شاهدها اثناء خدمته العسكرية، وكان يتصبب منه عرق بارد وهو يفعل ذلك، وكان الحضور جميعا يختفون خلف تبة ترابية تحاشيا للاصابة في حال انفجار اللغم وهو ما طلبه أبو علي منهم قبل أن يبدأ، وكان أبو علي على وشك الانتهاء من فك الصاعق من فم اللغم عندما دوى صوت قوي تسبب به انفجار إطار سيارة كانت تمر على الطريق قريبا من المكان، مما جعل أبو علي يفقد وعيه لهول المفاجأة، وعندما استيقظ من غيبوبته كان قد اصيب بلوثة في عقله حرمته لاحقا قدرته على الاقناع حين كانت تتولد لديه الرغبة بارتكاب حماقة ما من حماقاته المعتادة، فمنذ ذلك الانفجار المشؤوم وأبو علي لا يتوقف عن التلفت حوله بنظرات خائفة، وعند سماع أي صوت خلفه تراه يجفل واحيانا يقفز، ما كان يوحي لمحدثه بمشكلة ما في الوضع العقلي لأبي علي.

الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية

لم يكن درويش فعليا ينتمي إلى طبقة «الانتلجنتسيا»[1] التي يوحي بها مظهره الخارجي، القبعة الأوربية فوق الشعر الطويل نسبيا، وذقنه التي كان يضمخها الشيب، والبدلة البنية التي يرتديها بالتناوب مع البدلة الرمادية وفوق ذلك كله نظارته السميكة ذات الإطار البني، وكذلك طريقة كلامه ومعظم الموضوعات التي يطرقها والمصطلحات التي يستخدمها في أحاديثه، والكتاب الذي كان يحمله دائما في جيب الجاكيت أو تحت إبطه، إضافة إلى الكتب المبعثر ة في جميع زوايا بيته، كل ذلك كان يقدم صورة مزيفة عنه، أما الطبقة الحقيقية التي كان ينتمي إليها درويش فهي (حثالة البروليتاريا) التي كان هو يفضل أن يطلق عليها (البرولتاريا الرثة) ظنا منه أن (الرثة) ارفع منزلة وأخف وطأة من (حثالة).

كان درويش يدرك هذه الحقيقة، ويمكن القول إنه كان يخوض حربا لا هوادة فيها مع الكتب في محاولة منه للالتحاق بركب الانتلجنتسيا، كل كلمة كان يحاول أن يفهمها، فمن اجل أن يتمكن من تحليل مصطلح : مرض اليسارية الطفولي، قرأ كما لم يقرأ رفيق من قبل، وماكان يحز في قلبه أنه من كل ما قرأه وأعاد

قراءته لم يكن يفهم شيء، فكانت دمعة تترقرق في عينيه ويرمي الكتاب جانبا ويقول يائسا وحزينا:

- لا نفع من هذا الكلام.. أنا حمار معبا ببنطلون.. مهما قرأت فلن افهم.

مصطلحات أخرى كثيرة حاول أن يفهما، ولكن مصيرها كان مثل مصير مرض اليسارية الطفولي فلم يكن يستخدمها، ولكن أكثر مصطلح ارتاح له هو (الامبريالية) وهي أكثر كلمة كانت تتردد في الاجتماعات الحزبية، لهذا فمعظم نقاشاته في القرية كانت تدور حولها، كان لديه استعداد لكي يتحدث ساعة كاملة عن الامبريالية، ولكن كل ما كان يقوله كان يتلخص بكلمتين (الامبريالية حقيرة)، وقد كان دائما يتولد لديه شعور بأن ما قاله لم يكن يصل إلى محدثه، ولذلك يسأل:

- خيو بإختصار، شو أحقر شي عندك؟

- أحقر شي عندي حماتي.

أجابه محدثه في إحدى المرات مداعبا فقال له درويش فورا:

- الامبريالية أحقر من حماتك.

وهكذا فقد كانت الامبريالية مرة أحقر من الحصاد، ومرة أحقر من ضيف آخر الليل، ومرة أحقر من شخص لم يرد دينا عليه، لم يبق أمر حقير لم يذكر أمام درويش، ودائما كانت الامبريالية أحقر منه دائما.

شاب لديه الرغبة في السفر إلى الخارج من أجل الدراسة ولكن ليس لديه المال، نصحه أحدهم بأن يتودد إلى درويش كون حزبهم يرسل الطلاب للدراسة في اوربا الشرقية، وهكذا ذهب الشاب إلى درويش وأعرب عن رغبته في الانتساب للحزب، فما كان من درويش إلا ان ضحك مقهقها ببطء وقال:

- أتظن أن الانتساب للحزب هكذا، فقسنا بيضيتين وقليناهما؟ عضو الحزب يجب أن يكون صلبا ومثقفا مثله مثل الطبل الصيني أنّى ضربته يرن[2].

فوافق الشاب أن يكون مثل الطبل الصيني، بالرغم من عدم تقبله داخليا لتشبيهه بالطبل، وبناء على موافقته أخذ درويش على عاتقه واجب تثقيفه حتى يصل إلى مرحلة الطبل الصيني ويمكن اعتباره ساعتها من الانتلجنتسيا.

- ما هي الانتلجنتسيا؟

تساءل الشاب فرد درويش بنبرة توحي بثقة مطلقة بالنفس وابتسامة تولدها عادة الثقة بالنفس:

- لا تقلق.. نصف شعبك لا يعرف ما معنى هذه الكلمة.. بل قل ثلاثة ارباعه.. الانتلجنتسيا عمي تعني المثقف الثوري.

ولا نبالغ إن قلنا إن الشاب اعجب بمستوى درويش الثقافي وتمنى أن يصبح مثله ذات يوم، بغض النظر عن نجاحه في الحصول على المنحة الخارجية للدراسة أم لا.

بطبيعة الحال لم يكن الحديث في اللقاء الأول بين الشاب ودرويش لينتهي دون التطرق لمسألة الامبريالية التي شرح له درويش حولها مطولا ثم سأله في الختام:

- ما هو أحقر شيء بالنسبة لك؟

فأجابه الشاب ضاحكا:

- عندما أكون في المدينة وأصاب بالإسهال فلا أجد مكانا أقضي الحاجة فيه.

- الإمبريالية أحقر من ذلك.

أجابه درويش بشكل آلي وبمنتهى الجدية ثم استل من جيب الجاكيت كتاب (الإمبريالية أعلى مراحل الراسمالية) وقدمه له قائلا:

- خذ.. هذا الكتاب يعطيك فكرة كاملة عن الامبريالية.

أخذ الشاب الكتاب وقرأه بحماسة تعادل رغبته بالحصول على المنحة الدراسية ولم تكد شمس اليوم التالي تشرق حتى كان الشاب امام بوابة درويش يطرقها والكتاب في يده.

شرب درويش قهوة الصباح برفقته وطلب منه أن يطرح استفساراته إن كان لديه استفسارات فسأله الشاب عن الرأسمالية، وانطلق درويش يوضح له مقدار حقارتها هي الأخرى، فما كان من الشاب في نهاية الحديث إلا أن تساءل:

- أي أنها مثل الامبريالية.

- لا لا لا.. ليس الأمر كذلك تماما.. هناك فرق بدرجة الحقارة.. ماذا قلت لي أن احقر شيء بالنسبة لك؟

حين اصاب بالاسهال في المدينة ولا أجد مكانا لقضاء الحاجة.

كرر الشاب ما قاله بالأمس فطلب منه درويش:

- اعطني شيئا أحقر من ذلك.

- عندما اصاب بالإسهال وأجد مكانا، ولكن أحدا يشلغه في الداخل.

- الراسمالية هي الأولى.. والإمبريالية هي الثانية.. هل عرفت الفرق الآن؟

- نعم فهمت.

قال الشاب وسأل درويش عن كلمة أخرى كان يود شرحها له:

وما هي الاشتراكية؟

فوجي درويش بالسؤال الذي لم يتعرض له طوال تاريخيه النضالي، سُئل عن الديسبلين وأجاب على السؤال، سُئل عن البرجوازية الطفيلية والكمبرادور والكثير من المصطلحات المبهمة الأخرى، ولكن أحدا لم يسأله يوما عن الاشتراكية، وهو بدوره كان يظن أن معنى هذه الكلمة بديهة لا تحتاج إلى الشرح، ولذلك تململ

في مكانه وشعر للحظة أنه عاجز عن الاجابة على هذا السؤال المباغت، ولكن بديهته سرعان ما أنقذته فقال بثقة بالنفس:

- الاشتراكية هي عندما تصاب بالإسهال في المدينة وتجد الششمة أمامك على الفور، ولا يكون داخلها أحد.

ثم رشف من فنجان قهوته وعلى وجهه ملامح الارتياح ونظر إلى ساعته ملمحا للشاب أن موعد عمله اقترب، خشية أن يتذكر ذلك امرا آخر يسأله عنه.

ملاحظات:

(1) - درويش هو الوحيد بين رفاقة الذي يستخدم هذه المفردة (انتلجنتسيا)، فجميع رفاقه يستخدمون مصطلح المثقفين الثوريين بدلا من الانتلجنتسيا ولكن درويش شعر بسعادة غامرة عندما اكتشف هذه الكلمة، إضافة لما تمنحه اياه من الرماد الذي يذره في العيون لخلق الصورة المزيفة عنه.

(2) - (مثله مثل الطبل الصيني أنى ضربته يرن) عبارة قرأها درويش في أحد الكتب التي لم يفهم محتواها.

تحاليل

في السابعة صباحا، عندما كان الباص يسير في الطريق المنحدر من اعلى الجبل باتجاه المدينة، كان فياض يجلس في المقعد الأخير متوجها إلى طبيب التناسلية في المدينة، لكي يقوم بفحصه لمعرفة إن كان هو سبب المشكلة في عدم الانجاب أم زوجته التي مضى على زواجه منها سبع سنوات، وكان على ثقة كاملة بأن الدكتور سينظر في عينيه ويعطيه النتيجة مباشرة، وكان يتمنى بطبيعة الحال أن تكون زوجته هيي سبب عدم الانجاب، ليس من أجل الزواج بأخرى لكي ينجب، فهو لن يفعل ذلك في كافة الأحوال، ولكن لأن عدم الانجاب من قبل الرجل يعتبر بمثابة العار في أم الطنافس، وهو في الحقيقة كان قد اتخذ قرارا بألا يعود إلى القرية في حال تبين أنه غير قادر على الانجاب، وتخيير زوجته بالبقاء معه أو تركه كما تراه هي مناسبا، الكثير من الأخماس ضربها فياض بأسداسه قبل أن يصل إلى عيادة الدكتور الذي استقبله بعد أن وصل إليه الدور في حوالي الثانية عشرة ظهرا، وبعد أن شرح مشكلته للطبيب طلب منه الطبيب أن يقوم بإجراء التحاليل قبل أي شيء، واعطاه تحويلا إلى مخبر قريب يحول إليه كل زبائنه.

- نجري التحاليل.

قال فياض وتابع بروح الدعابة:

- ليست اول مرة نجري فيها تحليلا.. نحن قوم لا تخيفنا التحاليل أبدا.

وقهقه فياض لكي يفهم الدكتور أنه يضفي على الموضوع روح دعابته، ولكن الطبيب ناوله الورقة وطلب منه أن يحضرها في اليوم التالي لكي يطلع على النتائج، دون أن تتحرك عضلة واحدة في وجهه، ما دفع فياض بدوره لإعادة الملامح الجدية لعضلات وجهه ولم يستطع ألا يقول في نفسه بحنق:

- (تبا لك وللذي جاء اليك.. قبحك الله من بين الاطباء).

في المخبر أعطى الممرض حنجورا زجاجيا لفياض وأشار له إلى باب هناك طالبا منه أن يجلب له عينه من أجل التحليل.

لم يجد فياض أي صعوبة في الموضوع، فدخل إلى الغرفة الصغيرة تلك وأغلق خلفه الباب وما هي إلا دقيقتين حتى عاد إلى الممرض بحنجور مليء وقال:

- إن كان هذا قليلا أملأ لك حنجورا آخر.. ليس هناك أي مشكلة.

ولكي يظهر للممرض روح دعابته اردف:

- شربت اربعين كأسا من الشاي اليوم.. والخير كثير..

و قهقه فياض غير أن الممرض فاجأه:

- ليس المطلوب تحليل بول.

- تحليل ماذا اذا يا دكتور؟

تنحنح الممرض وقرب فمه من أذن فياض وهمس له بشيء ما، فتلبدت ملامح فياض، ونظر إلى الجالسين والجالسات على كراسي الانتظار حول الباب المؤدي إلى تلك الغرفة وامتقع لونه، ولكنه أخذ الحنجورين وتوجه صاغرا إلى الغرفة تلك، تخلص من الحنجور الأول ثم عاد فورا إلى الممرض قائلا:

- دكتور هل يمكن لي أن آخذ معي الحنجور وآتيك بالعينة ؟

فوافق الممرض ولكنه أوضح أن ذلك ممكن فقط في حال كان فياض يستطيع فعل ذلك في غضون عشر دقائق، لأن العينة تفسد إن مر عليها اكثر من عشر دقائق، وبطبيعة الحال فإن ذلك كان مستحيلا بالنسبة لفياض، مما دفعه للعودة إلى الغرفة المشؤومة متأملا في طريقه وجوه الأشخاص الجالسين على مقاعد الانتظار، وأكثر ما أزعجه ابتسامة صفراء كانت ترتسم على وجه أحدهم.

بدأ فياض بمحاولة استخراج العينة شاعرا بالحرج، وكأن جدران تلك الغرفة تراقبه، وبدلا من التخيلات المثيرة التي كان يحاول استحضارها لمساعدته في استخراج العينة، لم تكن تحضر إلى مخيلته سوى تلك الابتسامة الصفراء التي كانت ترتسم على وجه ذلك الوغد، وشيئا فشيئا لم تعد تخيلاته تكتفي بتلك الابتسامة،

فهو فجأة تذكر النظرة التي لا تخلو من الازدراء كما تهيأ له، والتي وجهتها إليه امرأة كانت تجلس على كرسي قرب الباب، وحضرت وجوه جميع الذين في الخارج فتشنجت ملامحه وقال في نفسه:

- كيف اتمكن من ذلك وجميع الذين في الخارج يعرفون ما الذي افعله هنا.

ولهذا السبب فقد فشل في الحصول على أي نتيجة، فقرر أن يتوقف قليلا ويحاول التخلص من هذه التهيؤات، وتمكن أخيرا من استحضار مشهد حار من فلم شاهده ذات يوم اسمه «الحب والحرب»، ففياض لم يشاهد افلام إباحية في حياته، ولكن هذا المشهد كان كافيا لبعث الحياة في الخلايا النائمة، خاصة وأن فياض أخذ يطوره في مخيلته بحسب ما يتطلبه الموقف، ولكن صدفة وقعت عين فياض على الباب فانتبه أن الباب من النوع القديم الذي فيه ثقب كبير للمفتاح يمكن التلصص منه، فأوقف العملية التي كان يقوم بها وخلع عن رقبته الشال وعلقه على مقبض الباب بحيث يسد الثقب الذي فيه، ثم عاد واستحضر المشهد المذكور سابقا بعد أن اصبح لديه خبرة في هذه الموضوع، وشعر فياض انه على وشك الحصول على العينة المطلوبة عندما امسك أحدهم من الخارج بمقبض الباب محاولا فتحه، ورغم أن الباب مغلق من الداخل بدقر، إلا ان فياض قفز وضبضب نفسه بسرعة وسقط الحنجور من يده على الأرض وأصدر صوتا جعل جميع من في الخارج يوجهون أنظارهم باتجاه الباب، ولكن الحنجور لم ينكسر، وهذا ما شكر فياض الله عليه.

التقط فياض الحنجور وعاد إلى محاولة استحضار العينة بالطريقة التي حاول فيها قبل دقائق، لكن صعوبة بالغة واجهته هذه المرة في استحضار المشهد المثير، ورغم استخدامه لكافة الوسائل التي يعرفها في محاولة استنهاض خلاياه إلا انه فشل فعاد للاتكاء على الحائط من جديد في محاولة لتمالك نفسه، ثم عندما شعر بأنه جاهز لجولة جديدة عاد لاستحضار المشهد المذكور الذي لا يوجد غيره في جعبة فياض، ويمكن القول إنه نجح في الانتقال إلى المرحلة اللاحقة من العملية وإن بصعوبة، وسارت العملية بأفضل مما يتوقعها فياض وكان على وشك اختتام المهمة التي كلفه المرض بها عندما سمع قرعا على الباب وصوتا أجش يستحثه:

- مطوّل أبو الشباب؟

قطعت سلسلة الصور التي كانت متوهجة في مخيلة فياض وتحولت كلها إلى شريط اسود قاتم، وخمدت خلاياه كأن أحدا اطلق عليها النار، وضغط على نفسه لكي لا يخرج ويحطم انف ذلك الذي قرع الباب، ولكنه تجاهل الموضوع وحاول العودة إلى فلم «الحب والحرب» الذي أخذ منه فياض ذلك المشهد ونسج عليه سيناريو جديدا كليا، مبقيا على بطلة الفلم وطاردا البطل الذي أخذ فياض مكانه، ولكن كل محاولاته الجديدة فشلت خاصة أنه سمع قهقهة في الخارج كان على ثقة تامة بأنه سببها، ما جعله يتوصل إلى قناعة تامة بأن الحصول على العينة في هذه الظروف الصعبة أمر مستحيل.

رتب فياض هندامه وخرج بالحنجور الفارغ من تلك الغرفة، التي سرعان ما دلف إليها رجل كان ينتظر عند الباب وفي يده حنجور زجاجي يشبه ذلك الذي كان مع فياض.

وضع فياض الحنجور على طاولة المرض وقال بنبرة حاقدة:

- لا اريد اطفالا..

ثم انصرف دون ان ينتظر رد المرض، وفي محاولة للانتقام، لم ينس فياض أن يعبث بمقبض باب تلك الغرفة ويصرخ باتجاه الداخل:

- مطول أبو الشباب؟

داهـود

داهود في بداية حياته كان بعثيا، لأنه لم يكن هناك شبيبة ثورة ايامه، وقد كان بعثيا متحمسا وليس ايا كان، لكنك إذا سألته : من هو ميشيل عفلق وأكرم الحوراني يقول لك من باب المداعبة:

- إحكي معنا عربي خيو.. نحنا ما نفهم انلكيزي.

داهود بكل بساطة كان بعثيا لأن ابن عمه هايل كان عضو قيادة فرقة بالقرية.

بعد ذلك التحق هايل بخدمة العلم، والتقى هناك برفيق سلاح اسمه منصور أعطاه كتابا عنوانه « البقسماط الأسود» هايل بعد أن قرأ الكتاب صار شيوعيا، بالمختصر دخل الخدمة الاجبارية بعثيا ودخل الخدمة الاحتياطية شيوعيا، ولأن الفرقة الحزبية التي كان هايل عضو قيادتها في القرية التي كل سكانها إما أعمامه وإما أخواله، فقد اكتفى الرفاق بالبصق في شوارب هايل وفصلوه من الحزب بعد ما لفقوا له بالاتفاق معه تهمة سرقة خمسمية ليرة من دكان «الغجري»، لكي لا تتهمه المخابرات بازدواجية التنظيم بعد أن يعلموا أنه صار شيوعيا، وهي تهمة مدمرة لمن توجه إليه يجمعها شبه كبير بتهمة الخيانة العظمى، داهود الذي يسير على

خطى هايل في كل شيء، ايضا بُصق في شاربيه وفُصل من الحزب بعد تلفيق تهمة مشابهة، وصار شيوعيا، مع أنه إذا سألته من يكون لينين أو من يكون ماركس يقول لك:

- إحكي معنا عربي خيو.. هل تظنني المانيا؟

نقاشات حامية الوطيس دارت بين هايل ومجموعة طلاب جامعة كانوا يستأجرون غرفة في المنزل الذي سكن فيه في الطبالة عندما عمل في دمشق، كلها كانت حول انتهازية الحزب الشيوعي، بعد هذه النقاشات علم هايل بوجود منظمة اسمها رابطة العمل، هي ايضا شيوعية ولكن أكثر من الحزب، ولم يلبث ان اصبح واحدا من أعضائها، وعندما اعتقل الطلاب ذات فجر وكانت الشكوك لا تزال بعيدة عنه عاد إلى القرية مختفيا عن الأنظار وما هي الا عصرية حتى صار داهود من الرابطة، ثم سجن الاثنان حوالي عشر سنين تقريبا، داهود خرج بعدها من السجن وهو لا يزال منتميا للرابطة، أما هايل فقد خرج من هناك وقد اصبح من الإخوان، لأن مهجعه كله كان من الإخوان، داهود الذي كان قد افرج عنه قبل ايام من الافراج عن هايل ذهب ليبارك لرفيقه هايل بالحرية، شرب عنده الشاي وبارك له وخرج من عنده وقد أصبح من الإخوان، مع انه اذا سألته من يكون البنا يقول لك:

- إحكي معنا عربي خيو.. هل تظنني اعلم الغيب؟

بعد ستة أشهر تقريبا سمع داهود ان هايل عاد من سفرته

الأخيرة سلفيا فتوجه إلى منزله فورا وعيونه تقدح شررا وبعد ما شرب كأس الشاي قال له:

- الك ولا للديب ابن عمي؟

- خسا الديب..

قال هايل واضاف بالفصحى تحسبا

- ان شاء اللّه.. وقدرنا على ذلك.

فقال داهود

- داخل على عرضك.. رسالك على بر يا ابن عمي.

وانفجرت الدموع من عينيه وتابع وهو يمسح تلك الدموع:

- خلينا نعرف على ايا مخدة بدنا نحط راسنا يا ابن عمي.

براءة ذمة

لولا المطر المتساقط بغزارة، ولولا زهمة الهواء البارد التي كانت تنبعث في الشارع، لتمدد سليم، العائد بعد منتصف الليل من سهرة «طرنيب» عند ابن عمه غطاس، قرب أي جدار من جدران منازل القرية وغفا لشدة نعاسه، ولكن ذلك كان مستحيلا في هذا الظرف الجوي القاسي، ولكي ينام كان لا بد له من الوصول إلى المنزل، ولذلك فقد تحايل على النعاس تارة بالتثاؤب وتارة بالتصفير، وبسبب انشغاله بذلك فإن سليم لم ينتبه إلى أن الماء لم يتسرب إلى داخل حذائه وهو يخوض في نقع الماء التي لم يرها بسبب العتمة، وهذا أمر غير مألوف بالنسبة له، فقد جرت العادة أن ينبجس الماء إلى قدم سليم من نعل حذائه كلما داس في نقعة ماء، كما ينبجس النفط من انبوب الحفر فوق رمال الصحراء، ولكنه سرعان ما انتبه إلى ذلك عندما كان في عتبة منزله، يدوس برجله اليمنى على الحافة الخلفية لفردة حذائه اليسرى لكي يخلعها من رجله، فقد سألته زوجته وهو يفعل ذلك مشيرة بيدها إلى الحذاء:

- من أين لك هذا؟

نظر سليم إلى الأسفل بتثاقل ليعرف ما هو الـ (هذا) الذي (من اين له)، ولم يتمالك نفسه عندما شاهد في قدميه فردتي حذاء جديد كليا، فطار النعاس من عينيه فورا ودفعة واحدة، وضرب على رأسه صارخا بألم:

- هذا الذي لم يكن في الحسبان.. غدا سيصبح لقبي (سليم سراق الصبابيط).

ثم وضح لزوجته التي تساءلت كيف حصل ذلك فقال:

- يبدو أنني في الظلمة حشرت رجلي في حذاء غريب.. غدا يقولون سليم سرق الحذاء.

- ومن أين لهم أن يعرفوا أنك انت، ألم يكن في السهرة غيرك؟

- كان هناك غيري، ولكن حذائي هو الوحيد الذي سيبقى، وهو اشهر من شامي كابور، سيعرفون أنني أنا، سيقولون: سليم لا ذمة ولا وجدان.. وصلت به دناءة النفس إلى سرقة الحذاء.

يخلع الحذاء من رجله بسرعة ويلبس (شحاطة) ويهم بالخروج، فتسأله زوجته:

- إلى أين؟

- سابحث عن صاحب الحذاء وأرده له.

- انتظر حتى الصباح وافعل ذلك.. السقعة في الخارج تقص المسمار.

- حتى لو قصت رأسي .. الحذاء يجب أن يعود إلى صاحبه الليلة، في الصباح سأكون قد اصبحت (سراق الصبابيط) الإشاعات تسري كالنار في الهشيم.. أنت تعرفين شعبنا.. في القيل والقال لا يشق له غبار.

تفهمت زوجته ذلك ولم تصر عليه بالبقاء لأنها تعرف أنه لن يستمع لها، بينما علق هو فردتي الحذاء الغريب بسبابة ووسطى يده اليمنى وخرج باحثا عن مالكه الحقيقي.

أول شخص قرر ان يتوجه إليه سليم كان ابن عمه غطاس الذي كانت السهرة في بيته، والذي فتح الباب والقلق يسيطر عليه، وعلى وجهه لا تزال علامات الغيض التي تسببت بها هزيمته النكراء في «الطرنيب»:

- خير انشاالله؟ هل حدث لأحدهم مكروه؟

سأل غطاس سليما فرفع سليم فردتي الحذاء في وجهه وسأله دون مقدمات:

- لمن هذا الحذاء؟

- سحقا لك ولهذا الحذاء.. اتوقظني بعد منتصف الليل لتسألني لمن هذا الحذاء؟

- نعم .. فهو ليس لي.. وقد لبسته عن طريق الخطأ..

- يا أخي أين المشكلة.. انتظر حتى يشرق الصباح وابحث عن صاحبه.. ليس الأمر مهما إلى هذه الدرجة.

- بالنسبة لك ليس مهما، ولكن بالنسبة لي هو أمر في غاية الأهمية، لأن الصبح إذا أصبح والحذاء لم يعد إلى مالكه الأصلي ستنتشر الشائعات.. سيضيف الناس إلى اسمي لقب (سراق الصبابيط)، انت تعرف شعبنا، لا يشق له غبار في النميمة والثرثرة التي بطعم وبلا طعم.

- لن يقول أحد ذلك.. عد إلى بيتك ونم قرير العين وفي الصباح تبحث عن صاحب الحذاء.

- ربما لن يقولوا ذلك.. ولكنهم بالتأكيد سيقولون أن دناءتي بلغت حد سرقة حذاء، شعبنا لا يرحم يا غطاس.. لا يرحم.

لم يجبه غطاس بشيء لأنه شعر أن لا فائدة من ذلك، واكتفى بالقول إنه لا يعرف من هو صاحب الحذاء فاعتذر منه سليم على الازعاج وتابع طريقه للبحث عن صاحب الحذاء، أما غطاس فأغلق الباب في إثره وأطلق في نفسه شتيمة طالت أبا سليم في قبره، لم يسمعها أحد بطبيعة الحال.

بيت برجاس كان اقرب بيت إلى منزل غطاس، ولذلك قرر سليم أن يتوجه إليه أولا للسؤال إن كان هو صاحب الحذاء، رغم ثقته بأن برجاس ليس من أولئك الذين يغامرون بلبس حذاء جديد في هذا الطقس الماطر، فتوقف أمام الباب وقرع بشدة لكي يسمع برجاس الذي اشتهر بنومه الثقيل طرقاته، ولكن ما لم يعلمه سليم أن برجاس لم يكن نائما، بل كان منهمكا في جلسة زوجية حميمية

لم يكن، بسبب السن، قادرا على القيام بها كل يوم ويستغل الفرص المناسبة لذلك، ولهذا السبب فقد تجاهل الطرق الشديد على بابه محاولا الاحتفاظ بالحد الأدنى من القوة لمتابعة موضوعه، إلا أن سليم بعد ان قوبل بعدم الرد ظن أن برجاس لم يسمع دقاته فعاود الطرق بقوة أكبر، وهنا خمدت عضلات برجاس التي حاول الحفاظ عليها سابقا، ونهض من أحضان زوجته وفي داخله حقد يكفي لارتكاب جريمة قتل عن سبق الاصرار والتصميم، ولو لم تنبهه زوجته لَفَتح الباب للطارق دون أن ينتبه لارتداء ملابسه، فعاد وارتدى ما تيسير لستر نفسه ورمى على كتفيه بطانية غطت جسمه بالكامل وتوجه لفتح الباب وقد هدأت أعصابه قليلا، وبمجرد انفتاح الباب ارتفعت في وجه برجاس فردتي حذاء وبدا من خلفهما وجه سليم يسأل:

ـ هذا الحذاء لك؟

لم يعرف برجاس بماذا يرد، واكتفى بالتحديق بحنق في وجه سليم الذي تابع موضحا:

ـ لبسته عن طريق الخطأ عندما انتهت السهرة في بيت غطاس.. وأخشى أن يظن صاحبه أنني سرقته.. انت تعرف شعبنا.. لا يرحم.. ولا يشق له في القيل والقال غبار.. إن لم يرجع الحذاء إلى صاحبه قبل شروق الشمس سيصبح اسمي سليم (سراق الصبابيط).. انت تعرف كيف تجري الأمور.

- انقلع.

قالها برجاس بهدوء مبالغ فيه يخفي خلفه حقدا يكفي لتفجير قنبلة نيترونية ثم أغلق الباب دون أن ينتظر رد سليم الذي أدرك أنه ارتكب حماقة ما، وقد ساعدته ملامح الامتعاض على وجه برجاس والبطانية التي كان يتلفع بها ويبدو من فتحة فيها صدره العاري، على ادراك كنه تلك الحماقة، ولذلك ابتلع الاهانة مقدرا وضع برجاس الصعب في هذا المضمار، والذي كان مطلعا عليه، وانصرف متابعا البحث عن صاحب الحذاء.

أبو عصام الذي اشتهر ببرودة أعصابه، فتح الباب دون أي انزعاج، وتفهم وضع سليم، وقال له إنه ليس صاحب الحذاء، وعندما سأله سليم إن كان يعرف صاحب الحذاء، رد عليه أبو عصام ببرودته المعهودة:

- لا والله يا أخي سليم، فأنا أتعرف على الناس بوجوهها لا بأحذيتها.

اكتفى سليم بهذا واعتذر من أبي عصام الذي قال مودعا اياه:

- عد إلى بيتك يا رجل.. لن يخرب الكون إن انتظرت حتى الصباح وبحثت عن صاحب الحذاء.

وهنا عاد سليم لكي يوضح له الموقف وأدرك أبو عصام بأنه لم يفعل خيرا بفتح باب للحديث.

- ليست لدي رغبة بالنزهة في هذا الجو العاصف.. ولكنك تعرف شعبنا يا أخي أبو عصام، يحب اللقلقة.. وإن لم يعد الحذاء إلى صاحبه قبل فجر اليوم سيكون اسمي في الصباح، سليم (سراق الصبابيط)، شعبنا يا أبا عصام لا يرحم.. لا يرحم، سيقولون ان الدناءة بلغت بنفسي حد سرقة حذاء من العتبة.

ظل أبو عصام يهز برأسه متحاشيا أن ينبس ببنت شفة قد تكون مقدمة لتطوير الحديث، وعندما انصرف سليم بعد أن قال كل ما لديه، ركض باتجاه اقرب فراش ودس نفسه تحت لحاف صوفي مرددا وهو يرتعش من البرد هناك:

- هذا سليم أخوث.

أما سليم فتابع إقلاق راحة القرية دون نتيجة، ولم يتمكن من معرفة صاحب الحذاء إلا بعد أن قرع الباب السابع الذي فتحه ناصيف، والذي أشهر سليم الحذاء في وجهه كما فعل مع جميع من سبقه وسأل:

- هل تعرف لمن هذا الحذاء؟

وبعد أن فرك ناصيف عينيه قال:

- هذا حذاء أبي غصن.. ما الذي يفعله عندك.

وبالقدر الذي فرح فيه سليم لمعرفته صاحب الحذاء فقد شعر بالهم والغم فأبو غصن الذي كان شريكا لغطاس في «الطرنيب»،

من قرية (التخريمة) المجاورة، وهذا يعني أن عليه أن يتوجه إلى هناك، وعندما فغر ناصيف فاه لهذا القرار قائلا:

- هل جننت يا رجل.. انتظر حتى الصباح وخذ له الحذاء.. ستأكلك الضباع قبل أن تصل إلى التخريمة.

رد عليه:

- فلتأكلني الضباع خير لي من أن يقال إن سليم (سراق صبابيط).

ثم قدم سليم كل أعذاره التي سبق ذكرها بالتفصيل وتوجه إلى التخريمة.

في الطريق شعر سليم بقشعريرة في بدنه وبشعر جسده ينتصب وتهيأ له أنه يسمع خلفه طقطقة مفاصل، وهو صوت تشتهر به الضباع عند سيرها بحسب روايات أهل القرية الذين سبق لهم الاحتكاك مع الضباع، ولكنه قرر ألا ينظر إلى الخلف للتأكد مما سمعه لكي لا يكتشف الضبع خوفه، في حال كان هناك ضبع طبعا، لأن الضبع يستغل خوف فريسته للانقضاض عليها، واكتفى سليم بحث الخطى بأكبر سرعة ممكنة، وعندما أفلتت من رجله فردة الشحاطة لم يعرها أي اهتمام، لأن أي توقف سيجعل المسافة بينه وبين الضبع الذي خلفه تقصر، مما قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، ولأنه كان يسير برجل حافية ورجل غير حافية فقد طرأ شيء من العرج على سير سليم ما جعله يتخلص من الفردة الثانية لكي يكون حرا فلا يدركه الضبع، وربما الضباع.

وصل سليم إلى التخريمة وتوجه فورا إلى بيت أبي غصن ووضع الحذاء أمام الباب، وفكر أن يبقى في مكان ما حتى الصباح، وأخذ يبحث عن مكان ملائم، ولكنه في اللحظة الأخيرة عدل عن ذلك، فماذا سيقول عنه أهل التخريمة إن علموا بالأمر؟ وهم حتما سيعلمون، سيقولون (خاف من الضبع) والفضيحة عندها لن تكون له وحده بل لقريته كلها، ولذلك فضل العودة إلى أم الطنافس، فلم يعد يهمه بعد أن برأ ذمته ما قد يحدث له.

عند بزوغ الفجر دخل سليم إلى منزله لا يعي شيئا فقد كانت تعتريه حمى شديدة وجسمه كله يرتجف، وعندما سألته زوجته عن حذائه رد قائلا:

- لم أعثر عليه، يبدو أن أحدهم سرقه، يا له من زمن بلغت به دناوة نفس بعضهم حد سرقة حذائي المثقوب. .. بشر بلا ذمة ولا وجدان..

المحقق

ادهم حشمة الهارب إلى دمشق من بطش والده الغاضب بعد ان سقط في امتحانات الكفاءة، لم يدخل إلى سينما السفراء حبا بالسينما ولا بحثا عن لقطة سكس في الفلم كما يفعل المراهقون عادة عند دخولهم إلى السينما، هو حتى لم ينظر إلى اسم الفلم عندما اشترى البطاقة، ادهم دخل إلى السينما لكي يسترخي ويغفو قليلا بعد ان انهكه التعب الذي سببه له السفر والسير طوال النهار على غير هدى في شوارع المدينة التي لا يعرفها جيدا، ولم يكن يحسب حسابا أبدا ان أحداث الفلم ستجعله مشدودا كقطعة حديد إلى مغناطيس شديد الفاعلية، فمنذ اللحظة الأولى عند سقوط القتيل الأول وجد أدهم نفسه ينتظر النتيجة التي سيتوصل إليها المحقق الذي وجد أدهم نفسه يشاركه هذه التحقيقات ويضع الفرضيات المختلفة ويوجه أصابع الاتهام لشخصيات الفلم بنشاط فاق نشاط المحقق نفسه، ومع ذلك فقد تغلب التعب على ادهم وغفا قبل نهاية الفلم ولم يستيقظ الا عندما سمع الجلبة التي اخذت تحدثها اقدام الجمهور المغادر، وبالتالي لم يتسن له معرفة القاتل، نظر إلى ساعته الجوفيال واحد وعشرون حجرا التي اشتراها له والده ذات يوم معتقدا ان ابنه سيصبح رجلا معتبرا،

ووجدها تشير إلى الخامسة والنصف فتوجه إلى شباك التذاكر ووقف في الطابور واشترى بطاقة ثانية ليشاهد عرض الفلم في الوردية الثانية التي تمتد من السادسة إلى التاسعة مساء، ثم اشترى اوقية من بذور البطيخ المملحة وانتظر حتى فتحت الأبواب لدخول الجمهور فدخل وتابع احداث الفلم مرة ثانية، ومع انه في المرة الثانية عرف القاتل الذي كان واحدا من ضمن دائرة توقعاته، الا انه بعد نهاية الفلم عاد واشترى تذكرة لمشاهدة العرض في الوردية الثالثة من التاسعة إلى الثانية عشرة ليلا، واشترى اوقية بذور بطيخ مملحة ثانية وشاهد العرض الذي استمر حتى الثانية عشرة ليلا ثم صاع في المدينة مرة أخرى وفي آخر الليل ذهب إلى الكراجات وأمضى ليلته هناك.

في اليوم التالي عد أدهم نقوده فوجد ان ما تبقى بحوزته لا يكفيه لشراء بطاقة فتوجه إلى مكان عند مدخل الكراجات يتجمع فيه باعة مختلفون وعرض هناك ساعة الجوفيال التي باعها باقل من نصف ثمنها كما اكتشف لاحقا، وتوجه إلى سينما السفراء وشاهد العرض ثلاث مرات أخرى.

وباختصار فقد شاهد أدهم الفلم بعد ذلك عشرات المرات في دور سينما مختلفة وهو حتى الآن وبعد مضي أكثر من عشرين عاما على ذلك اليوم مستعد لمشاهدة الفلم بكل سرور، لأن ادهم ببساطة شاهد في المحقق الذي في الفلم نفسه، فقد اكتشف في داخله أثناء مشاهدة الفلم محققا وكان على ثقة بأن لديه القدرة

الكافية لحل لغز أي جريمة مهما بلغت درجة تعقيده، وهذا الفلم تحديدا وبطله الذي يجهل ادهم اسم الممثل الذي لعبه حتى الآن هما المسؤولان الأساسيان عن القرار الذي اتخذه ادهم بالانضمام إلى سلك الشرطة، فهو لم يفعل ذلك خشية كرباج أبيه او خيزرانته، لقد تعود عليهما فقد سبق له وسقط في الصف الرابع والصف السادس.. وفي الصف الثامن ايضا فعلها، وهذه ليست المرة الأولى التي يفعلها في الصف التاسع، فهو يسقط للمرة الثانية، باختصار اراد أدهم أن يمنح أباه المجد الذي يطمح إليه عبره، عن طريق سلك الشرطة، وهكذا وجد نفسه في دورة الأغرار (أح تنين) و (وراء در امام سر) و (عندما تكون جاهز نار)، ثم في دورة استمرت ستة اشهر درس خلالها الكثير من المواد التي لم يفهم منها شيئا، في مادة المخبر الجنائي كان المساعد يبتسم هازئا كلما قرأ بندا من محاضرته التي يلقيها ربما للمرة الألف.. ويقول لهم:

- هذا كله كلا م فارغ.. لا شيء يساعد على اكتشاف الجريمة مثل الفلقة.

وغالبا ما كان يفتح احاديث عن ذكرياته عندما كان شرطيا عاملا، وكيف ساعدته الفلقة في اكتشاف الكثير من الجرائم المعقدة، ولكن ادهم رغم الهيبة التي كانت للمساعد المذكور في نفسه الا انه لم يكن ينوي ان يكتشف الجرائم عبر الفلقة عندما يتخرج من الدورة، كان لديه رغبة عارمة في تشغيل عقله، ويمكن القول إن أدهم في هذه الدورة التي استمرت عدة اشهر لم يتعلم سوى الرمي

بالبارودة الروسية كلاشينكوف، والمسدس الروسي ايضا مكاروف، إضافة إلى النظام المنظم الذي اخذه أدهم على محمل الجد فكانت خطواته على وقع طبول الفرقة الموسيقية العسكرية تكاد تفجر تحتها البترول من باطن الأرض، وهكذا علق ادهم على ذراعه رتبة العريف واستلم فرزه الذي احزنه وقتها، فهو لم يفرز إلى مقر للتحقيق الجنائي كما كان يحلم، وانما كتب في برقية الفرز مخفر(ام الطنافس) التي لم يسمع بها في حياته ولا يعرف اين تقع، وعندما ذهب إلى ادارة المدرسة واعرب عن رغبته في العمل في اخطر مكان تراه القيادة، اعلموه بأن غالبية الخريجين الجدد يخدمون في الريف ثم بعد عام او عامين يجري نقلهم، وهذا ما سيحدث معه، ولهذا السبب فعندما توجه أدهم إلى أم الطنافس، كان يظن ان إقامته هناك مؤقتة، استقبله السكان بحذر، فقد تعودوا ان كل رئيس مخفر عند قدومه اول ما يسعى إليه هو اثبات شخصيته القوية، وكلهم بدون استثناء لجأوا من أجل إثبات شخصياتهم إلى الفلقة، حتى أن رئيس المخفر الذي قبله لم يتوانَ عن رفع المختار فلقة على الملأ، ولكن ولشدة استغرابهم فقد مضى اكثر من شهر على تعيين العريف أدهم في رئاسة المخفر ولم يوجه لأي من أهل أم الطنافس صفعة، حتى أن الجندي الأول الذي كان يخدم هناك واشتهر بعنفه وفجاجته والذي لم يكن يتوانى عن توجيه اقذع الشتائم حتى في حضور النساء، توقف عن ذلك بعد ان بصق ادهم في وجهه ذات مرة حين قام بهذا، ولم يمض عام على عمل ادهم في أم الطنافس حتى أصبح الشخص المحبب لقلوب اهل القرية، الذين

غمروه بدورهم مكافأة له على سلوكه الطيب، بكل ما لذ وطاب وفي كل اجازة كانوا يحملونه ما يعجز عن حمله، وفي غضون سنة او اكثر بقليل اصبح ادهم كما لو انه ينتمي إلى هذه القرية، ومرت اربع سنوات دون ان ينتبه إلى ان قرار نقله من القرية لم يتخذ بعد، ثم مر بعدها خمسة عشر عاما، وها هو يحمل رتبة مساعد أول ويحسب السنين التي تبقت حتى خروجه إلى التقاعد ولم يفكر يوما بالهدف الذي وضعه لنفسه قبل ما يقرب من الربع قرن في سينما السفراء عندما شاهد ذلك الفلم الذي دفعه لكي يكون (ابن سلك) كما كان يحلو لأدهم أن يصف نفسه.

منذ فترة قبض أدهم على حمار من حمير المهربين الذي كان محملا هذه المرة بثلاثة اجهزة تلفزيون، وبما أن ادهم يعرف جميع المهربين في القرية فإنه ارسل في طلب صاحب الحمار وطلب منه أن يأخذ بضاعته، فشكره الرجل وفعل كما يفعل الآخرون عندما يعيد لهم ادهم مهرباتهم فقدم له جهاز التلفزيون هدية لكي يستمتع في المساءات الكئيبة بمشاهدة الأغاني والمسلسلات، فشكره أدهم وبعد نصف ساعة كان يقلب المحطات التي توقف عند احداها وقد التمع في عينيه بريق وخفق قلبه، وارتخى حنكه الأسفل مما جعل مساعده يسأله عما حصل، فاجابه أدهم:

- هذا هو الفلم الذي حدثتك عنه كثيرا.

شاهد أدهم الفلم برفقة مساعده الذي لم يأبه له كثيرا، أما هو فلم يغمض له جفن تلك الليلة، فقد استيقظت أحلامه القديمة

وتحولت القرية الهادئة إلى مستنقع صمت كئيب رهيب لا حياة فيه، فهو منذ وصوله إلى هذا المكان لم يحصل فيه جريمة واحدة تجعله يشعر انه (ابن سلك) لا يوجد هنا شيء غير التهريب وهذا في عرف المنطقة هنا لا يعتبر جريمة، فعدا عن ان جميع السكان لا يتقنون سوى هذه المهنة، كان جميع مساعديه الذين تعاقبوا على هذا المخفر يعملون فيها ايضا، حتى الهجانة الذين كانت مهمتهم الأساسية مكافحة التهريب كانو يعملون في هذه المهنة، وقبل بزوغ الفجر بقليل نهض من فراشه وجلس خلف مكتبه وخط طلبا على شكل رسالة مؤثرة لم يترك فيها وترا دون ان يعزف عليه كما يقال، عزف على الوتر الوطني فتحدث عن واجبه الوطني الذي يدفعه ليكون في مقدمة رجال السلك في التصدي للجريمة والمجرمين، ثم تحدث عن واجبه كأب يفترض به ان يكون قريبا من اسرته للاشراف على تربية اولاده تربية تليق بجند جديرين بشرف الدفاع عن حياض هذا الوطن، وتحدث عن المشاكل الصحية لزوجته، وامعانا في العزف تحدث عن حاجة والديه إليه، وأنه كـ (ابن سلك) لا يقبل ان يكون ولدا عاقا، ولم ينتبه إلى انه عند الحديث عن أمه كتب بشكل آلي (رحمها الله) وعند الحديث عن أبيه كتب (رحمه الله)، وعزف على الوتر الديني فذكر بعض الأحاديث والآيات، وتحسبا لكافة الاحتمالات فقد استعان بمقاطع من الانجيل، فربما يكون الضابط الذي سيقرأ رسالته مسيحيا، وختم رسالته بعبارة معهودة (ودمتم ذخرا لهذه الأمة).

في الصباح عندما سلم المظروف لمساعده وطلب منه ان يمتطي دراجته النارية ويتوجه بالمظروف إلى مركز الشرطة، تساءل مساعده عن محتوى المظروف فأعلمه انه طلب نقله من هذا المكان، وشرح له دوافعه الحقيقية فحاول مساعده الذي يتسم بالواقعية ان يثنيه عن قراره وأن يشرح له ان (ابناء السلك) قيادة وقاعدة ليسو بهذه الطهارة التي يظنها هو، وان نصف ما يجري في عالم الجريمة في المدن الكبرى هو من تنظيمهم، وان الكثيرين منهم يشرفون على مافيات تعمل بامرتهم وان تجارة الحشيش والمخدرات كلها بايدي رجال من السلك، ولم يترك اثما لم ينسبه لضباط السلك في العاصمة لكي ينفر أدهم منهم ويجعله يغير قراره، ولكن أدهم لم يتأثر قيد شعرة بكلامه، فقد كان مساعده هذا ممثلا فاشلا يكفي النظر في ملامح وجهه لكي تكتشف انه يؤلف كل هذه القصص على الهواء مباشرة.

- حتى رأس الماعز هذا يعرف انك كذاب.

اشار ادهم إلى رأس ماعز كان يعبر قريبا من المخفر بينما صمت مساعده مدركا أن الخطة التي رسمها فشلت في المهد، فركب دراجته النارية وانطلق.

وبما انه لم يكن هناك اسرار في القرية فان مساعده اخبر صاحب الدكان الذي دعاه لتناول كأس من الشاي مع فطيرة بطاطا ساخنة اعدتها زوجته للتو على الصاج، وصاحب الدكان اخبر شخصا

اشترى من عنده علبة سردين، وهذا بدوره اخبر شخصا آخر، وهكذا كان الخبر قد شاع في القرية كلها قبل ان يبلع مساعده آخر لقمة من فطيرة البطاطا.

منعه اهل القرية من متابعة الطريق ومزقو طلب ادهم وشكلوا وفدا من وجهاء القرية لكي يذهب ويقنعه بالعدول عن رأيه، ولكن ذلك كان دون جدوى، فقد اعرب لهم ادهم عن مدى حاجته لجريمة يقوم بكشفها وذكرهم بانه ابن سلك وان ابن السلك بدون جريمة يتصدى لها مثله مثل السماء بلا قمر ولا نجوم ومثل البحر بلا سمك وشخاتير، وانه يشعر بالحزن لفراقهم ولكنه لا يستطيع الا ان يكون في مكانه الطبيعي ك (ابن سلك)، وكان واضحا انه من العبث متابعة النقاش في هذا الموضوع فانصرف وجهاء القرية والحزن باد على وجوههم وجلس هو لكي يعيد كتابة الطلب من جديد ودمعة تنبثق من ريف عينه، متأثرا بالمحبة التي يكنها اهل القرية له.

وجهاء القرية كانوا يرغبون ببقاء ادهم ليس فقط بدافع المحبة، وانما لكي لا يأتيهم رئيس مخفر جديد (ابن سلك) حقيقي ويعكر عليهم حياتهم التي استمرت هانئة لعشرين عام متواصلة فقط بفضل ادهم، انتقال ادهم بالنسبة لهم كان خسارة لا تعوض، ولذلك فقد توصلوا إلى قرار غريب بعض الشيء، فقد اتفقوا ان يرتكبوا الجرائم بين فترة وأخرى لكي لا يشعر ادهم بالملل، فيقوم ادهم بالتحقيق واكتشاف الفاعل ثم يتدخل (اهل الخير) ويتوسطون

للفاعل الذي يعلن توبته ويتعهد لأدهم بعدم تكرار فعلته فيقوم هو بالعفو عنه، وهكذا يكون الجميع راضين.

وبالفعل، فقد سرقت في تلك الليلة دكان القرية في سيناريو محكم، ولأن ادهم اثناء شرحه عن الجرائم كان يعير اهمية كبيرة لموضوع البصمات، فقد جعلوا اللص يبصم على القطرميزات المرصوفة فوق الرفوف الخشبية في الدكان، بعد ان غطس ابهامهيه بالـ (ستومبا) التي يحملها المختار دائما في جيبه، وهكذا فقد جاء ادهم إلى الدكان والبصمات التي يريدها جاهزة، ولكنه مع ذلك استخدم مسحوقا حصل عليه من زميل له فرز للعمل في المخبر الجنائي، يساعد في رفع البصمات، واستخدم لصاقات شفافة وفرشاة كانت مع المسحوق الذي حصل عليه، وكان اثناء رفع البصمات يفعل ذلك مقلدا المحقق الذي في الفلم ولم يكن قادرا على اخفاء الفرح الذي يسيطر عليه، وهكذا تم ارسال البصمات إلى المعمل الجنائي، وصرح ادهم لأهل القرية ان بامكانهم النوم قريري العيون لأن النتائج ستأتي من المعمل الجنائي بعد يومين على اكثر تقدير، وان اللص سيكون في قبضة العدالة.

بعد يومين عاد مساعد ادهم على دراجته النارية التي ما ان سمع ادهم صوتها حتى خرج مستقبلا يدفعه الشوق لمعرفة النتائج التي توصل إليها المعمل الجنائي، ولكنه بدلا من الحصول على النتائج حصل على توبيخ شفهي نقله له مساعده عن لسان الضابط المشرف على المعمل الجنائي لأنه أفسد البصمات بالطريقة التي

رفعها فيها، فادرك ادهم ان رفع البصمات لا يحدث تماما كما في الفلم الذي شاهده، وأن هناك اجراءات أخرى على ما يبدو لكي تتم العملية.

اهل القرية جميعهم علموا حرفيا بالتوبيخ الشفهي الذي نقل لأدهم ولذلك فانهم في جريمة السرقة الثانية قرروا بحسب السيناريو الذي وضعه المختار، ان يترك الفاعل خلفه اثرا يقود المحقق إلى باب بيته فتم رش ما يعادل ثلاث كيلوغرامات من السكر على شكل خط يصيل بين باب الدكان وبيت الفاعل، وتم التبليغ في المخفر عن سرقة شوال سكر من الدكان، ولكن ادهم الذي شاهد خط السكر الذي يفترض ان يوصله إلى الفاعل بحسب السيناريو لفت نظر مساعده:

- يبدو انه كيس سكر مفزور على ظهر حمار لم ينتبه له صاحبه.

- تهريب.

وافق مساعده، ولم يأت أحد على ذكر ذلك الخط بعد ذلك، مما دعا بعض وجهاء القرية لتنبيهه فطلب منهم عدم التدخل في عمله وكلف مساعده باخلاء المكان حفاظا على سرية التحقيق، فقام مساعده بابعاد الناس بينما جلس هو في الدكان عاجزا لا يعرف ما يفعله، وبعد فترة خرج من الدكان واعلن للذين عادوا إلى موقع الجريمة ان اللص محترف، لم يترك خلفه أي اثر يشير إليه، ما دفع

المختار لكي يضيف تعديلا جوهريا إلى الجريمة الثالثة، فجعل الفاعل يترك في موقع الجريمة فردة حذائه الذي يعرفه ليس فقط سكان ام الطنافس، وانما سكان القرى المجاورة ايضا، وعندما جاء ادهم دفع برأس قدمه فردة الحذاء التي طارت خارجة من باب الدكان وتساءل:

- ما الذي تفعله فردة حذاء عمران هنا؟

فاجابه المختار ملمحا:

- ربما تكون فردة حذاء اللص؟

- لا إنها فردة حذاء عمران.. أيعقل أنك لا تعرف فردة حذاء عمران يا مختار؟

- أعرفها.

قال المختار ونعت ادهم في داخله بالحمار، وفي المرة الرابعة طلب المختار من عمران ان يترك بطاقة هويته على الطاولة فاذا تكرر اسم عمران مرة ثانية لا بد ان ادهم سيلاحظ، ولكن ادهم عندما جاء إلى الدكان وضع دفتر التحقيق فوق بطاقة الهوية ولم ينتبه لها اطلاقا، وعندما نبهه المختار إلى وجود شيء ما تحت الدفتر سحب ادهم الهوية ونظر فيها ثم صفقها في وجه عمران الذي كان يقف قريبا وقال:

- انتبه لبطاقة هويتك يا بهيم.. الا تعرف عقوبة من يفقد بطاقة الهوية؟

ترك المختار ادهم يمارس تحقيقاته التي لا طائل منها وغادر المكان شاعرا باليأس، وفي الطريق سأله احد الوجهاء عن الدليل الذي سيتركونه في السيناريو القادم للجريمة، فاعلن المختار انه لن يكون هناك سيناريو آخر واردف:

- ليذهب إلى الجحيم.

اما ادهم فقد قال لمساعده الذي سأله ان كان ما يزال مصرا على طلب نقله:

- دعها في القلب تجرح.. اذا كنت قد عجزت عن كشف لص ام الطنافس.. فهل ساتمكن من مقارعة لصوص العاصمة.. انسى الموضوع.

ثم طلب منه ان يقيد الجريمة في محضر التحقيق (ضد مجهول)

المرأة الأوتوماتيكية

عندما جيء به من القرية لينضم إلى الفريق الذي يقوم بكل المهام في مكتب الحزب، بدءا من الحراسة وانتهاء بتنظيف المراحيض مرورا بصنع الشاي والقهوة للرفاق في القيادة وضيوفهم من مختلف حركات التحرر وغير ذلك من المهام التي لا يمكن حصرها، احتار أبو فراس في ادراك طبيعة مهنته بالضبط وبماذا يجيب إن سؤل عن ذلك، وقد انقذه من حيرته الرفيق أبو سعيد عضو اللجنة المركزية الذي قال له إن الرفيق لينين كان يطلق على امثاله صفة «الثوريين المحترفين»، وهي صفة تشمل جميع الرفاق المتفرغين للعمل الحزبي والذين يحصلون لقاء عملهم الثوري على راتب يسدون به حاجاتهم وحاجات اسرهم المعيشية، بدءا من الأمين العام وانتهاء بأصغر حارس في مكتب الحزب، وهكذا فإن أبا فراس منذ ذلك الحين يعرف عن نفسه حين الحديث عن مهنته بأنه «ثوري محترف»، ولمن لا يفهم يكرر مفسرا ما قاله الرفيق أبو سعيد نقلا عن لسان الرفيق لينين، يستثنى من ذلك بطبيعة الحال افرع المخابرات التي كان يقول فيها إنه موظف حيادي في جريدة الحزب، حين يسأل عن العمل الذي يمارسه، فهو بعد خدمة استمرت سنوات في طاقم الحراسة

والخدمات اصبح سائقا لإحدى سيارات الحزب ثم بعد ذلك ارتقى درجة أخيرة واصبح يستلم رسائل الرفاق الموجهة للجريدة من مختلف المحافظات، فيجيب على الأسئلة التي يعرفها ضمن زاوية بريد القراء التي كان يطلع عليها الرفاق بطبيعة الحال، ويحيل باقي الرسائل كل رسالة إلى الجهة صاحبة الاختصاص، فرسائل النقابيين للرفيق أبي بكري، والرسائل ذات الطابع الاقتصادي للرفيق أبي جلال، وهكذا دواليك، الشيء الوحيد الذي تغير في شخصية أبي فراس منذ ان اصبح ثوريا مكتبيا محترفا هو انه فقد رومانسيته الثورية التي كان يتمتع بها سابقا اثناء تجوله امام مكتب الحزب مخفيا تحت سترته مسدسا على اهبة الاستعداد لصد أي اعتداء على المكتب الذي أطلق عليه الرفيق الأمين العام صفة «شرف الحزب»، فقد اصبح يرتدي بدلا من بنطال الجينز الأزرق والحذاء الذي لا يميزه عن البسطار العسكري الا لونه البني، اصبح يرتدي طقم سفاري مكون من بنطال رمادي اللون وسترة بكمين قصيرين هي الأخرى رمادية اللون، وبدلا من الحذاء البني اخذ يرتدي حذاء اسودا، ويمكن القول إنه اصبح موظفا بكل معنى الكلمة، الشيء الوحيد الذي بقي يربطه بماضيه الثوري الرومانسي هي قصصه التي كان يرويها للرفاق الشباب من «الثوريين المحترفين» عن المهام التي كان يكلف بها من قيادة الحزب في نقل المطبوعات والرسائل إلى المحافظات، وكيف اكل ذات مرة رسالة موجهة من الرفيق الأمين العام إلى الرفيق سكرتير منظمة عفرين عندما القت المخابرات القبض عليه عند حاجز في مدخل

حلب بسبب المطبوعات التي كان يحملها في كرتونة تحت كرسيه في الباص، وكيف ان الرسالة علقت في زلعومه وكاد يختنق لو ان احدهم لم يناوله زجاجة ببسي كان قد شرب نصفها، وأكثر قصة كان يتأثر بها أثناء روايتها هي حين حاصر ثلاثمئة عنصر من الشرطة مكتب الحزب عندما اطلق الرفيق أبو امين النار محتفيا بعرس كان يمر موكبه على الشارع وكيف تموضع الرفاق على مختلف النقاط وخرطشوا بواريدهم واجبروا دورية الشرطة على إطلاق الرفيق أبو امين فقامت الدورية بطلب المساندة التي جاءت و كان قوامها ثلاثمئة شرطي، ويطنب في الحديث الذي كانت تدخل عليه تفاصيل جديدة في كل مرة وتخرج منه تفاصيل أخرى، وبطبيعة الحال فإن أبا فراس ككل قصاص يروي احيانا قصصا مختلقة لم تحدث قط، وخاصة من تلك التي حدثت في زمان ليس منه في المكتب اليوم شهود، ويمكن هنا التنويه بشكل خاص إلى القصص التي تتحدث عن حواراته مع الرفيق الأمين العام الذي لم يكن يبخل بنصائحه على أبي فراس أبدا، أما الرفاق الشباب حديثي العهد في الحرفة الثورية فقد كان معظمهم يصدق كل ما يقوله أبو فراس ما عدا بعض التفاصيل التي كان خبثاء بينهم يشككون في امكانية حدوثها ولكنهم يفعلون ذلك بصوت منخفض.

يمكن القول إن أبا فراس الذي جاء قبل اكثر من عشرين عاما إلى المكتب لم يعد هو نفسه أبو فراس الذي نراه في هذه اللحظة فقد تغير كثيرا، لم تعد جيوبه مثلا محشوة ببذور البطيخ وعباد

الشمس التي لا يتوقف عن اكل البابها وتفل قشورها بغض النظر عن المكان الذي هو موجود فيه، وعندما ينفث الدخان من سيجارته اخذ يدير وجهه جانبا، كما أنه اصبح ينفض الرماد ويطفئ العقب في المنفضة ولم يعد يفعل ذلك على الأرض، ولكن بعض عاداته بقيت كما هي، وبالتحديد ساعة اليد التي لم يكن يطيق حملها، حتى الساعة التي اهداه اياها الرفيق أبو محمد عضو المكتب السياسي بعد عودته من موسكو والتي رسم على مينائها الأبيض صورة تجمع لينين وماركس وانجلز، لم يستطع حملها في يده اكثر من ساعتين تخلص منها بعدهما كما تتخلص طبقة الفلاحين من نير الاقطاع البغيض، ولكن في نفس الوقت وكأي موظف فقد كان دائما في حالة شوق لانتهاء الدوام، اولا لأنه اخذ يشعر بالملل وثانيا لكي يلحق الباص إلى القرية، وبسبب ذلك فقد كان كل ربع ساعة يتململ في مكانه ثم ينفث من صدره هواء ثقيلا ويخرج من مكتبه إلى الصالون حيث يجلس إلى طاولة خلف الباب الرفيق أبو جورج الذي لا يزال في الطور الأول في مهنة المحترف الثوري، فيسأله:

- قديش صارت هالساعة معك بو جريج؟

فيجيبه أبو جورج ولا تخلو حركته من تذمر لا يلاحظه أبو فراس لكونه لا يعاني من حساسية مفرطة، وبعد ربع ساعة يعود ليسأله من جديد:

- قديش صارت هالساعة معك بو جريج؟

فيذكره أبو جورج:

- من ربع ساعة سألت.. شو قصتك انت والساعة أبو فراس؟

- توق للمستقبل يا رفيق.

يجيب أبو فراس مداعبا فيقترح عليه أبو جورج:

- طالما عندك كل هذا التوق للمستقبل اشتريلك ساعة وحطها بايدك.

- ليس من باب البخل بو جريج.. انا عندي ساعة تساوي ثقلها ذهبا.. اهداني اياها الرفيق الأمين العام.. لكن يا اخي ما العمل.. لا احب القيود في معصمي..

(أبو فراس لم يذكر يوما ان الرفيق أبو محمد هو الذي اهداه الساعة، كان يقول دائما انها من الرفيق الأمين العام)

ذات يوم وبينما كان أبو جورج منهمكا بقراءة قصة «كيف سقينا الفولاذ» اخترق صوت أبي فراس الحاد اذنيه كنصل:

- قديش صارت هالساعة معك بو جريج؟

رفع أبو جورج رأسه ونظر إلى أبي فراس وكاد يقول له (عليك وعلى الساعة) ولكن احترامه لنضال أبي فراس جعله يصمت ويشير إلى الهاتف ويقول

- اتصل بالساعة الناطقة يبلغونك بالوقت بأدق تفاصيله.

مط أبو فراس شفتيه وشقل حاجبيه وهز رأسه وملامحه توحي بانه يفكر في امر ما وسأل:

- ليش فيه هيك شي؟

- طبعا.

رد أبو جورج وتناول الهاتف ثم مد لأبي فراس السماعة وطلب منه ان يدير القرص برقم الساعة الناطقة، ولم يكد القرص يستقر في مكانه حتى بدأت الساعة الناطقة بالكلام بصوت نسائي صاف:

- عند الاشارة تكون الساعة العاشرة وخمس وعشرون دقيقة وثلاثون ثانية.

- شكرا لك.

رد أبو فراس ولكن الساعة استمرت بالحديث معلنة عن الزمن التالي فكرر أبو فراس:

- شكرا يا اختي شكرا..

وتتابعت العملية، المرأة تعلن عن الوقت وأبو فراس يشكر ويزداد عصبية:

- شكرا يا اختي شكرا.. شكرا يا عيني شكرا.. ممنون فضلك انا شكرا.. ولك يا اختي والله معنا بكالوريا ومنفهم من اول مرة.. والله منسمع لسنا طرشانا.. لا حول ولا قوة الا بالله.. قلنا شكرا..

إلى ان طبش السماعة أخير في وجهها وصاح موضحا لأبي جورج:

- العمى.. ما بتفهم.. اكيد زوجة شي مسؤول عينوها في المقسم تنفيعة..

ثم اشعل سيجارة واردف وهو ينفث اول نفس منها:

- ايمتا بدنا نخلص من المحسوبيات يا اخي؟

بعد ان هدأ أبو فراس قليلا شرح له أبو جورج ان المرأة لا تسمعه وان الرد اوتماتيكي طالما السماعة مرفوعة ستبقى تتحدث، صفن أبو فراس وشعر قليلا بالخجل لجهله بهذه التفاصيل، وفي نفس ذلك المساء كان يتحدث لأهل ام الطنافس عن آخر ما توصل إليه العلم، الا وهو المرأة الأوتوماتيكية التي يضعونها في المقسم للرد على اتصالات المستفسرين عن الساعة، الأمر الذي استنكره الرفيق ملحم أحد قدامى المناضلين واعتبره خطوة تروجها الامبريالية للاستغناء عن الطبقة العاملة برجال آليين، لا يأكلون ولا يشربون ولا يطالبون بحقوقهم.

حط إيدك

اشتهر أبو حمود في القرية إضافة إلى بدلة الدرك الفرنسي ببنطالها المنفوخ من الجانبين والتي لم يشاهد في لباس غيرها، و إلى شاربيه الكثين الأصفرين، اشتهر بقصصه المختلقة لدرجة تدل على ان عقل أبي حمود لا يفرض أي رقابة على لسانه فهو تارة طبيب تخرج من السوربون، مستغلا معرفته باللغة الفرنسية التي لا يعرف احد من أين حصل عليها، وتارة طبيب الملوك والرؤساء، وتارة قائد الفرق الحديدية في الثورة وتارة مسقط الطائرات بدقة تفوق سام 6، ولا يخلو الأمر من بعض القصص التي اختلقها السكان ونسبوها إليه، ولكنه مع ذلك في بعض الأحيان يكون في حالة تجلٍ ويروي قصصا في منتهى الواقعية، وإن حاول احدهم تحريضه لرواية قصة ما من قصصه الخيالية يرميه بنظرة ثاقبة مفعمة بالازدراء تجعل الشخص يصمت طوال السهرة، ولكن هذه الحالات كانت نادرة جدا، أما اليوم فهو في حالة يراه فيها الجميع للمرة الأولى، فبعد ما يقارب الشهر من التحاقه بالخدمة العسكرية عاد صافي في اجازة يحصل عليها الجنود عند نهاية دورة الأغرار، وبما ان صافي قد فرز للخدمة في صفوف الشرطة العسكرية فقد كان اكثر ما يلفت النظر فيه هو تلك القبعة البيريه الحمراء التي

كانت تميل فوق رأسه، وكما يحصل مع شخص يعود بعد غياب، يحضر عدد من سكان القرية ممن يجمعه بهم علاقة ما، للسلام عليه وتبادل الأحاديث، وقد كان أبو حمود من بين الذين جاءوا للسلام على صافي هذه الليلة، ولكنه بقي صامتا منذ بداية السهرة وحتى آخرها، ولم يتفوه بكلمة واحدة رغم محاولات البعض بث الروح في السهرة عبر تحريضه، ولكنه بعد كل محاولة كان يلقي نظرة الازدراء تلك فيصمت الشخص الذي حاول ذلك، إلى أن كف الجميع عن التحرش بأبي حمود الذي كان يبدو عليه أنه يفكر في أمر ما، شرب أبو حمود كؤوس الشاي التي قدمت له بدون حماس وبقي حتى انصرف الجميع ثم نهض وطلب من صافي:

- شرف عمي صافي احتاجك في امر.
- تفضل يا عم أبو حمود، قل ما تريد.

نظر أبو حمود فيما حوله ثم اردف :

- للحيطان آذان.. فلنخرج إلى الطريق.

لبس صافي شحاطة بلاستيك كانت في العتبة وخرج في اثر أبي حمود وقد اعترته حالة من الفضول لمعرفة الشيء الذي لا يريد أبو حمود للحيطان ان تسمعه.

في الشارع تأبط أبو حمود ذراع صافي وسارا حوالي عشرة امتار دون ان ينطق أبو حمود بحرف، ثم توقف ونظر إلى صافي وقال له بنبرة في قمة الجدية:

- انبسطتلك كثير لأنهم أخذوك إلى الشرطة العسكرية.

- شكرا عم أبو حمود.

ولم ير فيما قاله أبو حمود ما يشكل مادة دسمة لآذان الحيطان، عداك عن ان الخدمة في الشرطة العسكرية لم تكن بذلك الأمر الذي يبعث على السرور، ثم تابعا السير وتابع أبو حمود حديثه دون ان يلتفت إلى صافي:

- انت شب آدمي وأهلك أوادم.. بيتكم بيت الشهامة والنخوة....

وأطنب أبو حمود في المديح لدرجة جعلت صافي الذي بدأ يشعر بالنعاس، يتساءل:

- ألأجل هذا أخرجتني من المنزل يا عم أبو حمود؟

- لا.

قال أبو حمود باختصار وتابع:

- ابن نصار.. وجيه.

- ما به؟

- تخّ في السجون.. يكفيه.. اثنا عشر عاما.

- معك حق .

قال صافي ولم يتمكن من استشفاف مناسبة الحديث عن وجيه نصار الذي اقتاده الأمن عندما كان عمر صافي اقل من ثماني سنوات بقليل، بينما تابع أبو حمود:

- غلط الرجل خيو.. لكن جل من لايخطئ يا اخي.. قال كلمتين بحق الحكومة.. والحكومة من حقها تعاقبه لأنه قال هاتين الكلمتين .. لكي يتربى هو وغيره ولا يجيبو سيرة الحكومة بالعاطل كل عمرهن.. فلتنتف له الحكومة شاربيه يا اخي .. فلترفعه فلقة وتجمع اهل البلد يبزقوا بوجهه في الساحة.. فلتحبسه .. لكن يا اخي مش اتنعشر سنة.. فليحبسوه سنتين على كل كلمة يا اخي.. ثلاث سنوات.. يكفي.. لو على كل حرف سنة فان اتنعشر سنة تكفيه.. يا اخي هذا انسان.. متى سيتزوج وينجب .. ام ان الحكومة تريده ان يبقى بلا ذرية؟

- معك حق.

كرر صافي باقتضاب محاولا عدم التورط بكلام اكثر في موضوع وجيه نصار الذي يدرك خطورته و يلعن في داخله أبا حمود الذي فتحه وتمنى ان يكون أبو حمود قد انتهى، ولكن أبا حمود انطلق متابعا:

- ابن صلاح الدين قتل قتيل.. انحبس وطلع.. ابن هلال سرق خزينة الدولة انحبس سنة وطلع بالعفو.. اعتبرو وجيه نصار قاتل قتيل او سارق خزينة الدولة خيو.. آن له ان يخرج..

وهنا قرر صافي ان يضع حدا لهذا الحديث الذي اخذ يكبر ككرة الثلج وسأل أبا حمود:

- ولماذا تقول هذا الكلام لي؟

- لأني احبك ولا اريد لأحد ان يتحدث عنك بالعاطل.

- وما علاقتي انا لكي يتحدث عني الناس بالعاطل؟

- غدا يقولون هه.. عندما صار .. تخلى عن أهله وجيرانه.

- وما هو المطلوب مني لكي لا يتحدث الناس عني بالعاطل يا عم أبو حمود.

- حط ايدك بالموضوع لعلهم يفكون اسر الولد.. بدنا نشربك اياها بالمعلقة يعني؟!

افلت صافي ذراعه من يد أبي حمود ونظر إلى ملامح وجهه التي لم تكن قط جدية كما هي الآن، ولم يتمالك نفسه، افلتت منه ضحكة، ما لبثت ان تحولت إلى قهقهة وتصاعدت لتأخذ شكلا هستيريا.

حدق فيه أبو حمود مستغربا وكان يحاول تفسير ما يقوم به صاف، أهو ضحك ام بكاء، ولكن ومع ذلك فإن شعورا بالإشفاق على صاف تشكل عند أبي حمود.

أما صافي الذي كان منخرطا بالضحك والبكاء معا فلم يشعر بالازدراء لأحد كما يشعر بالازدراء لنفسه الآن.

في الليلة الظلماء يفتقد البدر

يحدث ان يُستدعى شخص ما من سكان القرية إلى المخفر من اجل توجيه بعض الأسئلة له، احيانا لرغبة رئيس المخفر في معرفة أمر ما، و أحيانا بعد تقرير من عادل الذي اشتهر في القرية بلقب (الفسّاد) في غيابه و (أبو زمور) في حضوره حيث كان عادل مولعا باطلاق زمور جراره بمناسبة وبدون مناسبة وكان يقول إن صوت هذا الزمور احب إليه من صوت ام كلثوم، ولكن للحقيقة والتاريخ فإن تقارير عادل لا تتعدى درجة النميمة التي لا يطمح رئيس المخفر لمعرفة اكثر منها، والعملية كلها سواء الاستدعاءات او التقارير التي يرفعها عادل لم تكن تتعدى كونها تقليدا لا بد منه في مكان ينتمي قاطنوه إلى ما يسمى سلك الشرطة، وعلى الرغم من الازدراء الذي كان اهل القرية يكنونه لعادل إلا انهم كانوا قد تعودوا عليه كما يتعود مريض الروماتيزم على ألم المفاصل، ولم يكن احد منهم يعتبره خطرا عليه، لأنه وبكل بساطة يصمت في حضور عادل أو يرمي عدة كلمات في مديح الجهات التي يستحسن مديحها، وفي بعض الأحيان كان إذا أخطأ احدهم بكلام امام عادل ربما يكون خطيرا أو يحمّل صاحبه مسؤولية ما، يقوم عادل

بتنبيهه لعدم تكرار ذلك لأن هذا الكلام قد يؤذيه، وهكذا تآلفت القرية مع عادل تآلفها مع النمس الذي يسرق الدجاجات ليلا.

ولكن ما حدث اليوم كان من الجلل بحيث يمكن القول إنه شكل منعطفا في تاريخ القرية، فقبيل الفجر ودون علم رئيس المخفر، حضرت دورية من غير المعروف لأي جهة أمنية تنتمي وسحبت رشيد سلامة من احضان زوجته بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فقد صادفت رغبة جسده التي كان على وشك تلبيتها مع انهمار المسلحين من شباك غرفة النوم التي كان رشيد فيها مع زوجته، حيث تم تكبيله ورميه إلى الخارج من النافذة ليتلقفه رجال آخرون هناك ويرمون به في صندوق السيارة في لمح البصر تقريبا، اما زوجته فقد ربط لسانها، والأنكى من ذلك أن أحد عناصر الدورية الذي ربما يكون قائدها نصح زوجة رشيد بأن تنسى أن لديها زوج اسمه رشيد، وأن ترفع عليه دعوى طلاق وتبحث عن زوج آخر، الأمر الذي يشير إلى خطورة التهمة التي اعتقل بسببها.

أما ثاني شخص اصيب بالرعب بعد زوجة رشيد فهو عادل، إذ كيف يقنع أهل القرية الآن بأنه لا علاقة له بما حصل، الجميع سيتهمونه بانه من وشى برشيد، خاصة وان زوجة رشيد كانت قد رفضته عريسا قبل ان تتزوج من رشيد، ولم يكن هناك مبالغة في مخاوف عادل فسرعان ما طرق بابه ليفتحه ويجد امامه رئيس المخفر الذي بصق في وجهه اولا لأنه تجاوزه إلى جهات أخرى ثم بصق مرة أخرى بسبب افتراءه على رشيد الذي انخرب بيته بسبب

عادل، كما أكد رئيس المخفر، لأن الذي يأخذه هؤلاء الذين اخذوا رشيد قبيل الفجر، عادة ما لا تعرف أخباره لاحقا، وكان لدى رئيس المخفر رغبة عارمة بصفع عادل على وجنته، لا بل توجيه لكمة له تحطم واجهة اسنانه، لكنه تراجع عن الفكرة خشية من الجهة التي يعمل معها عادل الآن، وانصرف تاركا عادل في حال لا يحسد عليها، وعبثا حاول عادل شرح موقفه وتبرءة ساحته أمام أهل القرية فالبالغين يبصقون في وجهه والنسوة يرشقنه بالصرامي، والأولاد يقرعون له على التنك ويغنون له اغاني بذيئة لايعلم الا الله اين تعملوها، حتى كلاب القرية أخذت تنبح عليه، كما لو انها تدرك ما حصل.

عند الظهيرة كان عادل قد تحول إلى شخص منبوذ لا يحظى بتعاطف أي إنسان في القرية، وقبيل المساء لم يجد أمامه بدا من تحميل بعض فرش منزله في صندوق الجرار والرحيل إلى منطقة مجهولة، ويمكن القول إن القرية برحيل عادل قد تنفست الصعداء، رغم أن السكان بعد ما يقارب الأسبوعين شعروا بتأنيب الضمير بسبب موقفهم منه، ذلك ان رشيد سلامة عاد من الاعتقال واخبر الجميع أن الموضوع برمته لم يكن سوى تشابه اسماء، وأن التهمة الموجهة لسميّه خطيرة لدرجة أنها لا تنطبق على رشيد باي شكل من الأشكال، كون رشيد رجل شبه امي لا يفقه شيئا، ورشيد الآخر عضو قيادي في حزب معارض محظور، باختصار فقد ثبتت براءة عادل من التهمة التي نسبت إليه، ومع ذلك فكر البعض بانه رب

ضارة نافعة، فقد كانت مناسبة للتخلص من عادل.

غير ان غياب عادل ما لبث ان تحول إلى عبء على القرية، ذلك ان رئيس المخفر الذي تعود ان يحصل على كل معلوماته عن القرية عن طريق عادل أصبح أشبه بالأعمى، لا يدري ما يجري حوله ويحتاج إلى عيون تنقل له ما يجري هنا وهناك، لكي يدرج ذلك في التقارير التي يرفعها لمديرية الناحية على الأقل، وهكذا بدأ يستدعي الرجال واحدا إثر آخر، وبعد ان يكرم الشخص بكأس من الشاي و قطعتين من البسكويت والراحة، يلقي عليه محاضرة رثة في الوطنية من تلك التي استهلكت مفرداتها ولم تعد تثير الا السخرية لدى من يسمعها، ولكن رئيس المخفر لم يكن يملك غيرها، وبعد المحاضرة يقوم باقتراح التعاون بين المخفر والمواطن الذي يجلس أمامه، ولأن احدا لم يكن لديه الرغبة في الحصول على هذا الشرف العظيم فقد كان الرفض يتم بدون مواربة، فورا وبشكل قاطع، ولكن ورغم ان الجميع رفضوا فقد تولد لدى أهل القرية شعور بأن شخصا ما، خجلا او خوفا، ربما وافق على هذا العمل، وكانت كل الأحاديث بين اهل القرية ترمي إلى محاولة معرفة الشخص الذي وافق على هذا العمل، لكي يتم أخذ الحذر منه، ولأن هذا الشخص يمكن أن يكون أي واحد من بينهم فقد اصبح كل منهم يخشى ان يتطرق إلى أي موضوع يمكن ان يشكل مادة لتقرير، خاصة بعد ما حصل لرشيد، رغم أنه تبين أن ذلك كان مجرد سوء تفاهم، فافلام الرعب التي رواها لهم رشيد عما

جرى معه وشاهده في الداخل كانت تكفي كدافع قوي لعدم الوقوع ضحية مثل سوء التفاهم هذا، ولذلك كثرت الأحاديث عن الطقس والقمر والنجوم، والصيد والفلاحة، وهذا ما شكل حالة اكتئاب لدى سكان القرية بسبب كبت مشاعرهم ازاء الحكومة، التي كانوا يبوحون بها صراحة كل يوم في السابق، فقد كان يكفي غياب عادل لكي يتولد في المكان شعور بالأمان.

طمأنهم قليلا عودة رئيس المخفر لاستدعائهم لنفس السبب مرة أخرى، مستخدما الترهيب هذه المرة، مما يدل على أن احدا لم يوافق على هذا العمل في الجولة السابقة، وهنا وجد المختار ان من واجبه هو أن يعثر على مخرج من هذا المأزق فدعا للاجتماع مجموعة من أعيان القرية، وبعد جدل وأخذ ورد توصلوا إلى اتفاق يقضي بتشكيل وفد رفيع المستوى يتقصى مكان وجود عادل ويتوجه إليه ليعتذر منه ويرد له اعتباره، وريثما يتم العثور على عادل اقترح المختار ان يتم تعيين جدول مناوبة يتم تعليقه في المخفر ويقوم خلاله واحد من رجال القرية كل يوم بممارسة عمل الفساد.

- من جهة نكف بلاء رئيس المخفر عنا فيتوقف عن الاستدعاءات وإزعاج الناس، ومن جهة أخرى نعرف أمام من نصمت وأمام من نتكلم.

اوضح المختار الغاية من اقتراحه فوافق الأعيان على الاقتراح، ثم وافق رئيس المخفر، وبدأت المناوبات التي كان المخبر المناوب

خلالها ينبه الآخرين إلى أنه مناوب اليوم فيغيرون الحديث.

عثر الأعيان على عادل في قرية قريبة فتوجه إليه وفد على رأسه المختار، رد له اعتباره وقام الجميع بتقبيل الشاربين اللذين بصقوا عليهما قبل أشهر، أما عادل الذي انهمرت دموعه تأثرا لما يجري، فلم يجد بدا من الموافقة والعودة إلى مسقط رأسه لخدمة أهله واحبته من جديد.

الجبصين

عندما دك اسعد بارودته لم يكن في وارده حتى اصابة ذلك الذئب الذي يجوح من مكان ما هناك بين الرجوم الكثيرة المنتشرة في تلك الكروم، ولذلك فهو مع البارود لم يضع في سبطانة بارودته الدك اكثر من ربع قمع من الخردق، لا تقتل حتى حرذونا، كل ما في الأمر انه اراد ان يخيف ذلك الذئب فيولي أدباره مفسحا لزوجة اسعد المجال لكي تغمض اجفانها وتنام، فهي عند عواء أي حيوان، حتى لو كان ذلك مجرد واوٍ، تصاب بحالة من الرهاب لا تسطيع السيطرة عليها، وعادة ما يرافقها قشعريرة ناتجة عن تخيلاتها المرعبة لصوت عظامها بين فكي ذلك الوحش، توقع اسعد ان يهرب ذلك الذئب، هذا إن لم يكن كلبا، او ان يتوقف عن العواء على اقل تقدير، ولكن الشيء الوحيد الذي لم يكن يتوقع حصوله هو ان يسمع صراخ جودي من بين تلك الصخور التي اطلق باتجاهها ثم يسمع اتهامه اليائس الصريح:

- قتلتني يا اسعد.

ومن نافل القول إن اسعد الذي لم تطاوعه نفسه ولم يفكر بقتل الذئب لم يكن ليقدم على قتل جاره جودي، ولذلك رمى بالبارودة

جانبا وركض كمن اصابته لوثة باتجاه الصوت ليعثر على جودي مرميا على الأرض يمسك بكلتا يديه بطة رجله اليمنى ويتلوى ألما كذئب اصيب في خاصرته، أما اسعد فإنه لشدة هلعه، لم يشعر بثقل جودي أبدا وهو يحمله ويلقي به على ظهر الحمار، الذي اجبرته عصا اسعد أن يتحول إلى حصان حتى وصل إلى مستوصف الناحية الذي يناوب فيه دائما طبيب وممرض.

انتظر اسعد في الخارج مطلقا ابتهالاته إلى السماء لكي لا تكون إصابة جودي قاتلة، لأنه لن يسامح نفسه أبدا على ذلك، ووجد نفسه وهو يبتهل يبكي اكثر من مرة، و يضرب بيده على الحائط الخارجي للمستوصف وهو يتكئ بجبهته عليه محاولا كبت نحيبه لكي لا يسمعه احد، اما جودي فقد انتزع الطبيب من رجله بملقط يشبه ملقط نتف الشعر، حبة خردق كانت عالقة في الجلد ثم مسح مكانها بقطعة قطن مبللة بالكحول ووضع له قطعة لاصق طبي وطلب منه ان يعود إلى بيته، غير ان جودي كان اثناء انشغال الطبيب بعمله يفكر بامر ما، ولغاية في نفسه توصل إليها بعد هذا التفكير طلب من الطبيب ان يتكرم عليه ويلف له رجله بالجبس، فما كان من الطبيب الذي لم يعتد ان يبدي أي احترام لفلاحي المنطقة الا ان قال له بكل بساطة:

- انقلع.

وهكذا اخذ جودي يرتدي جواربه وحذاءه استعدادا لكي (ينقلع) كما طلب منه الطبيب، ولكنه تعمد الابطاء في ذلك املا في

انصراف الطبيب الذي كان يتثاءب طوال الوقت مما يدل على شدة نعاسه، فينفرد بالممرض ويطلب منه نفس الطلب، أما الممرض الذي دس في جيبه خمس ليرات اعطاه اياها جودي فلم يجد بعد انصراف الطبيب مانعا من تلبية رغبة المصاب، وان كانت غريبة بعض الشيء وأغدق عليه بالجبس فلف له رجله من اسفل الورك بقليل حتى باطن القدم.

شكر اسعد الله على نجاة جودي، وعانقه طويلا وضمه إلى صدره، ولم ينس ان يعتذر منه ويوضح له ربما للمرة المئة أنه لم يكن يعرف ان جودي في المكان، ولو فكر اسعد قليلا حول سبب تواجد جاره في ذلك المكان لأدرك بدون عناء ان ذلك العواء لم يكن سوى عواء جودي نفسه، الذي كان يطلقه من اجل إخافة اسعد كضرب من التسلية لا اكثر ولا اقل، ولكن اسعد ليس من اولئك القوم الذين يمكن ان يتعبوا ادمغتهم باي نوع من انواع النشاط العقلي.

نام جودي تلك الليلة قرير العين بينما جلس اسعد الذي قرر ان يبقى مناوبا قربه تحسبا لأي طارئ، فوق كنبة قديمة و سرعان ما غط هو الآخر في نوم عميق، وفي الصباح وبينما هو يتناول صحن البيض المقلي الذي جهزته زوجته العائدة برفقة زوجة اسعد من الكروم، اطلق جودي حسرته الأولى:

- كل مشاريعنا انضربت لهذا العام، لن استطيع ان افعل شيئا وانا مكبل بالجبس.

- أي مشاريع؟

تساءل اسعد الذي شعر بالذنب فرد عليه جودي فورا وكأنه يعرف السيناريو مسبقا:

- ما سبب وجودي في الكرم تلك الليلة المشؤومة؟

- لا ادري.

- انا ادري.. انا كنت هناك من اجل قطاف المحصول، لا يوجد أي سبب آخر يأخذني إلى هناك غير هذا.

نظر إليه اسعد نظرة تحمل في ثناياها عتبا عميقا ثم وجه له اللوم:

- الا تخجل من نفسك يا جار؟ الا تخجل من نفسك؟ من قال لك انك حين تكون مكبلا بالجبس لن تستطيع فعل ذلك؟

جحظت عينا جودي لاعتقاده بان اسعد لديه طريقة تجلعه يتغلب على الجبس، ولكن اسعد دق بقبضته على صدره واردف:

- ما فائدة وجودي اذا؟ محصولك كله سيكون في السحاحير قبل ان تغيب شمس هذا اليوم.

ثم نهض اسعد واصطحب زوجته وتوجها على الفور إلى كرم جودي، وبالفعل فإن شمس ذلك النهار لم تغب الا وكل محصول جودي من الثمار قد رتب بكل اناقة في السحاحير الخشبية التي كانت موجودة هناك، وهذا ما اخبره اسعد لجودي عندما عاد منهكا قبيل منتصف الليل بقليل.

- وما الفائدة يا جار؟

قال جودي بنبرة تقطع نياط القلب، ثم اردف:

- ما الفائدة من جنيه إذا كان سيتعفن في السحاحير، فكيف أبيعه في السوق وانا مكبل بهذا الجبس اللعين؟

- عيب عليك يا جار.

قال اسعد متثائبا ثم اردف بعد ان غبت رئتيه الأوكسجين غبا:

- ما الذي افعله أنا إذا؟ أم أنك لا تعتبرني صديقا؟

- لا صديق لي غيرك، لكنني لا اريد ان اتعبك.

- لا اريدك ان تشفق علي.. يكفي انك تتحمل الألم بسببي.. بعد ظهر غد سيكون ثمن المحصول في جيبك.

وبالفعل فقد كان جودي ظهر اليوم التالي يلحس ابهامه بين فترة واخرى وهو يعد المبلغ كاملا لم يخصم منه اسعد حتى تكاليف النقل التي اخذها على عاتقه، وبسبب الفرح الذي اصابه فقد نسي رجله المكبلة بالجبس ونهض وعانق اسعد وطبع على شاربيه قبلة حرارتها تدل على صدقها، ولو ان اسعد لم ينبهه إلى رجله المصابة ويطلب منه الحذر، لرقص جودي من الفرح، فاكثر شيء يكرهه في هذه الحياة هو جمع المحصول ونقل السحاحير إلى السوق لبيعه، (ساحاول توقيت الاصابة في المرة القادمة اثناء موسم

الحراثة) فكرة كانت تدور في رأس جودي وهو يلقي بمؤخرته فوق فراش المرض بعد أن عانق اسعد شاكرا، فهو يكره الحراثة اكثر من كرهه لجني المحصول ونقله للبيع في السوق.

- ارجو ان تكون كل مشاريعك قد تحققت الآن يا جار.

قال اسعد مداعبا ومنتظرا ان يشكره جودي فيشرب برفقته كأس الشاي الذي اعدته زوجته ثم ينصرف لكي ينام بكل ما اوتي من نعاس، فهو في حالة من الانهاك لم يشعر بها من قبل، ولكن جودي أطلق أنينا وقال:

- لا .. ما زال عندي بعض المشاريع.. ولكنها تافهة لا تستحق الذكر.

لم يعقب اسعد خشية ان يتورط، وهذا ما لم يكن في سيناريو جودي الذي تابع محاولا استدراج اسعد:

- رغم انها مثل الملح على ظهري والحق يقال.

وكأنما اسعد أدرك غاية جودي فتحاشى فخه بالصمت الذي يوحي بالتجاهل، مما جعل جودي يتابع الهجوم على ضمير ووجدان اسعد ومنوها للجبصين لكي يربط عجزه بفعل اسعد:

- لا مشكلة.. نتحمل البرد والدلف سنة اخرى ايضا.. فمن المستحيل صب السقف وانا مكبل بهذا الجبس اللعين.

- أي سقف؟

تساءل اسعد وهذه كانت غلطته القاتلة، فاجابه جودي:

- سقف المطبخ، كنت انتظر بيع المحصول لأنفق ثمنه في تسقيف المطبخ، بدلا من انفاق النقود على البرازق والمعمول، فيذهب تعبنا كله إلى الششمة اعز الله شانك.

- لا تقلق يا جار، فكل شيء سيجري كما خططتَ له تماما.

وضرب على صدره وتابع:

- بوجود اسعد.

صب اسعد سقف المطبخ، وزرع مساكب النعناع والبقدونس وغير ذلك في حاكورة جودي، واشياء كثيرة اخرى جعلته يتمنى لو ان نار بارودته اصاب جودي في قلبه تماما وارداه قتيلا، فمن الأسهل على الانسان دفع الدية وقضاء الحق العام على تنفيذ مشاريع جودي التي لا تنتهي، ولذلك ففي الموسم الذي تلا هذا، ظل جودي يعوي حتى الصباح تقريبا لكي يخرج اسعد ويطلق النار، وكان قد خدش رجله سلفا لكي تدوي صرخته المعهودة عندما يطلق اسعد النار ويكرر:

- قتلتني يا اسعد.

ولكن اسعد هذه المرة تجاهل العواء تماما، ولم يعر أي اهتمام لرهاب زوجته التي حضته عدة مرات على الخروج وإخافة الذئب، ثم استسلمت اخيرا للنوم، اما جودي بعد أن شعر باليأس فقد عاد

إلى عرزاله حيث زوجته التي لا تجرؤ على النوم قبل ان تسمع شخيره يتعالى في اركان العرزال وقال بنبرة مفعمة بالحقد:

- جبان، لم يجرؤ على الخروج من عرزاله.

الفهرس

الأمانة	7
البقرة	21
الحمار الثامن	31
المايسترو	39
الجريمة	45
شهادات وفاة	53
صراع البقاء	63
سعيد ابن عمي حمار	71
فروج بروستد	83
قدر ولطف	89
كلسون الخام الألماني	95
كلمة أصدقاء الفقيد	105
أبو مزيد سليم	115

البرواظ 119
يهوذا الأسخريوطي 137
أعط الخبز لخبازه ولو أكل نصفه 151
الإمبريالية أعلى مراحل الراسمالية 163
تحاليل 169
داهـود 175
براءة ذمة 179
المحقق 189
المرأة الأوتوماتيكية 201
حط إيدك 209
في الليلة الظلماء يفتقد البدر 215
الجبصين 221
الفهرس 229